حليم بركات

طائر الحوم

« رواية »

الانهر، تعرضت للقتل

ولدتُ بعد كل موت



حليم بركات

روائي وعالم اجتماع.

ولد في الكفرون، سورية، عام ١٩٣٣، وعاش في بيروت.

حصل على البكالوريوس والماجستير في علم الاجتماع من الجامعة الأمريكية في بيروت، ودكتوراه في علم النفس الاجتماعي من جامعة ميشيغان في الولايات المتحدة، آن اربور ١٩٦٦.

عمل أستاذاً وباحثاً في الجامعة الأمريكية في بيروت والجامعة اللبنانية وجامعة هارفرد وجامعة جورجتاون.

نشر عدة كتب ودراسات في العربية والإنكليزية.

الأهالي

إهداء ٢٠١٠

المرحوم / محمد بن على الدعفس

المملكة العربية السعودية

حليم بركات

طائر الحوم

« رواية »

الأهالي

كتبت هذه الرواية اصلا قصة بعنوان «اهبط ايها الموت إلى الكفرون» سنة ١٩٦٢ لدى زيارتي الأولى للولايات المتحدة، ونشرتُها في مجلة «أدب» بيروت، صيف ١٩٦٢، العدد الثالث، ص ٢٦ - ٣٥. أعدت كتابتها في فترات متقطعة بين ٨٥ - ٨٧ بعد زيارة مفعمة للكفرون فأخذَتْ شكلها الحالي.

حليم بركات

هذه هي الأرض التي أغرقت
جذورها في شِعري
بابلو نيرودا

عميقاً في داخلي
كما في تلك البحيرة المفقودة
تسكن رؤية طائر
بابلو نيرودا

«تفرج يا حبيبي وشوف
حليم بركات عالمكشوف»

طائر الحوم يعود إلى الكفرون

عبد الرحمن منيف

«طائر الحوم» رواية متفردة، بالغة الرقة والحساسية، إضافة إلى جرأتها في التصدي لعددٍ من القضايا الشائكة، التي تكاد تكون محرمة. هذا عدا عن معمارها الفني الجديد والمتميز.

وبقدر ما توغل هذه الرواية في الماضي، بحيث تبدو أقرب إلى سيرة الطفولة، فإنها شديدة الحضور في الراهن، في الهموم المعاصرة؛ كما لاتغفل عن التنبيه لأخطار المستقبل. لذلك ليس من السهل تصنيفها ضمن العناوين السائدة، أو حصرها في إطار ضيق. إنها تذكرٌ وبوح وتأمل، وتصل في أحيان كثيرة إلى مستوى الشعر الخالص، دون أن تنسى خطها الدرامي الذي يجعلها إحدى أبرز الروايات التي صدرت في السنوات الأخيرة.

وحليم بركات روائي متميز، راسخ القدم، قوي الحضور، لايحتاج إلى تقديم أو تعريف.

أما المقدمات فتعتبر، أغلب الأحيان، خاصة في مجال الرواية، زائدة، وقد تشوش القارئ أو تفسد عليه المتعة، لأن القارئ يرغب في معظم الحالات أن يدخل إلى عالم الرواية، أية رواية، وأن يكتشف، معتمداً على مالديه من أدوات وذائقة.

يضاف إلى ما تقدم أنه في حال وجود ضرورة من أي نوع لمقدمة ما، فإن مكان هذه المقدمة الطبعة الأولى للرواية، لا في طبعاتها اللاحقة.

فما الدافع إذن لهذه المقدمة في الطبعة الثانية للرواية؟

لا أخفي، بداية، أن هذه الرواية الهامة مرت، في طبعتها الأولى، دون أن تنال ما تستحقه من عناية النقاد والقراء. فالنقد لم يجهد نفسه من أجل إيجاد تسمية أو توصيف دقيق يناسبها، ربما لطغيان الصيغ الجاهزة وفق مدارس وأساليب محددة سلفاً، وبالتالي أغفلها، أو لم يعتن بها العناية التي تليق بها، كإحدى العلامات البارزة في الرواية العربية المعاصرة.

وإذا كانت العادة أن لايتوقف القراء، طويلاً ودائماً، عند الأحكام التي يصدرها النقد، وأن يتعاملوا مع الأثر الأدبي دون أحكام مسبقة، ومن خلال التعرف المباشر، فإن «طائر الحوم» لم تصل إلى القراء إلا بأعداد محدودة ومتباعدة، والسبب في ذلك انحسار سوق الكتاب، وأيضاً تعذر انتقاله، أو على الأقل صعوبة هذا الانتقال، من مغرب الوطن إلى مشرقه، مما جعل هذه الرواية، التي صدرت طبعتها الأولى في المغرب، لاتصل إلا كصدى، وأن يكون تداولها ضيقاً.

كان هذان الدافعان سبباً كافياً لأن أتحمس للموافقة على القيام بهذا العمل الشاق: تقديم «طائر الحوم» إلى القراء، خاصة في المشرق، وفي الطبعة الثانية؛ يضاف إلى ذلك أنني رافقت بعض مراحل ولادتها!

ففي إحدى زيارات حليم بركات إلى باريس، قبل عقد من الزمن، وقبيل صدور هذه الرواية، كنا نذرع شوارع باريس ونغرق في أحاديث تتناول مواضيع شتى، وما كدنا في أحد مشاويرنا نصل إلى جسر نابليون، وكان مطر أول الخريف يهبط بنعومة، حتى بدأ الحديث عن الرواية التي يوشك على الانتهاء منها. فجأة تحوّل حليم إلى كتلة من الانفعال، كان

يتحدث بلسانه وعينيه وجسده كله، خاصة وهو يستعيد الطفولة وأيامه في الكفرون. توقفنا طويلاً على الجسر، وهبط علينا المطر رفيقاً رقيقاً، وتسللت نحونا الكفرون، تلك الضيعة التي كانت تغفو في وادي النصارى، وشاركتنا الوقوف على الجسر، فامتلأ الجو بشذى هاتيك الأمكنة والأزمنة البعيدة.

بعد ذلك، ولزمن غير قصير، كنت متأكداً أن حليم عازم على تكريس هذا العمل للضيعة التي رأى فيها النور، الكفرون. ولذلك اعتبرت العنوان الذي يقترحه للرواية:

«اهبط رحيماً أيها الموت على الكفرون» موفقاً ودالاً.

هذا ما كان في ذلك الخريف الباريسي، لكن ما كادت تمضي شهور قليلة حتى استلمت رواية بعنوان «طائر الحوم» ولحليم بركات!

هل هي نفس الرواية التي تحدثنا عنها طويلاً؟ وهل يستحق ذلك الطائر أن يحتل وحده عرش الكفرون؟

الآن... يبدأ الحديث عن الرواية

«طائر الحوم» بمقدار ما تتناول سيرة الطفولة، ويبدو فيها الطفل بطلاً، بمعنى ما، فإن المكان شديد الحضور إذ أنه قوي ومستمر من البداية إلى النهاية، وكأن العمل كله مكرس من أجل تمجيد الكفرون، تلك البلدة التي لم يخلق لها مثيل، كما يراها الراوي.

أما حين تتناول الرواية حياة الأب، خلال ذلك الزمن الصعب، ورغم المساحة المتواضعة والمتناثرة التي تحتلها، فتبدو شخصية محورية، آسرة، إذ تتجسد بقوام وملامح لايمكن أن يخطئها الإنسان أو أن ينساها.

وحين تترآى ملامح الأم، أو أثناء الغياب، بالشجن الذي يسربلها، فإنها أشبه بالألحان الكنسية الآتية من أمكنة بعيدة، أو كأنها العتابا التي

تحفل «بالقرار»ن في رهانٍ لشفاء النفس ومحاولة لتطهيرها أكثر مما تهدف إلى إطراب الآخرين ونيل رضاهم واعترافهم. فذلك «القرار» يترك في الروح ندوباً لاتنتهي، وغالباً دون صخب، تماماً كما هو حب الأمهات، كما هي عواطفهن.

أما الأيام التي نعيشها الآن، بيلادتها وخوائها، وذلك الجو الثقيل الذي يسيطر عليها، فإنها بمقدار خضوعها لمنطق الرواية، وما تتطلبه من حركة وعلاقات، فتخضع أيضاً إلى منطق العقل، لكن دون اقحام أو تعسف، إذ تحلل وتقارن كي تفتح أعيننا على حقائق كثيرة يجب أن ننتبه لها في الوقت المناسب.

وما دام مناخ الرواية قد «انكشف»، كله أو بعضه، من خلال الموضوعات الأساسية التي تتطرق لها، فإن الرحلة إلى داخلها أمر شديد الأهمية، إذ يقودنا إلى «عري العلاقات والعالم» كما يقول الراوي في أحد المقاطع، ويضعنا في مواجهة الأسئلة الكبيرة عن معنى الحياة والموت.

ففي البداية، ومن خلال اصطدام الطفل بالعالم خارج عتبة البيت، يكتشف الطبيعة بكل مكوناتها وعناصرها: الأشجار والينابيع والصخور، ثم المخلوقات التي تملؤها، بدءاً من النمل والطيور والحيوانات وانتهاء بالبشر، ليصبح المكان، الكفرون، مسرحاً حافلاً مواراً بالحياة والحركة والتغير، فالينابيع التي تتدفق: كركر والشيخ حسن والشير، ليست مجرد ينابيع، وإنما شرايين تكوّن الحياة، تسكب فيها القوة والفرح، ثم تقود المخلوقات، والبشر أيضاً، لاكتشاف الجمال واللذة والآخر، ولاكتشاف الخطر في نفس الوقت.

فإذا غادر الطفل المياه، ووضع قدميه الحافيتين على اليابسة، ونظر إلى الأعلى، فجبلا السيدة والسائح لايكتفيان بأن يطلا عليه، وإنما يبدوان كحارسين. وهذان الحارسان بمقدار ما يخلقان الشعور بالأمن، فإنهما

يحدان النظر، يقفان في وجه الخيال، الأمر الذي يضطر الصغير لأن يرفع عينيه نحو السماء، كي يقرأ في الغيوم الرغبات والأحلام. لايكتفي بالنظر، يسافر مع تلك الغيوم إلى الأمكنة القصية التي تصلها، وقد يسافر إلى أبعد من ذلك!

وفي نهاية الخريف، حين تبدأ الطيور الموسمية هجرتها، حاملة معها البشائر لاقتراب أيام المطر والخصب، وبدل أن تُستقبل بودٍ وفرح، فإن الطلقات العمياء، من صيادين هواة، تصرعها، إذ ما تكاد تحوم على شكل دوائر متكسرة، وتقترب ثم تستف نحو الأرض، وتقع في مرمى أولئك الصيادين، حتى تنالها طلقاتهم، فيتناثر ريشها الأسود والأبيض فوق الأشجار، على سطح المياه. وبسقوطها المدويّ، ثم رؤية عيونها الحزينة، يكتشف الطفل قسوة البشر.

إنه بداية الدروس التي يحفظها الصغير، ولايريد أن ينساها. فالطيور، حين تهوى، حين تنظر إلى البشر حواليها، فإنها لاتلتمس عوناً ولاتنتظر مساعدة القتلة، فقط تنظر، وتظل تنظر، وكأنها تدين وتتحدى. والطفل الذي يرقب المشهد، ويحاول المساعدة، وحين يعجز، وتنتهي تلك الطيور إلى مصيرها المحتوم، تتبدى له الكفرون كلها على شكل وادٍ عميق، كجرح تاريخي غير قابل للشفاء. ومع ذلك، وبالرغم من ذلك، لاتتوقف الطيور الموسمية عن المجيء، ولا تخلف مواعيدها أبداً، وكأنها تختبر البشر، مرة بعد أخرى، لتتأكد ما إذا بقوا كما في المواسم السابقة أم هبّت عليهم رياح جديدة غيرتهم، جعلتهم بشراً من نوع جديد!

إن الطيور وهي تفرد أجنحتها السوداء الواسعة، كاشفة عن صدورها البيضاء، تبدو مزهوة متألقة، تماماً «مثل فتاة تتأمل صدرها في مرآة الماء». أما إذا هوت فيغادرها الزهو والتألق، تصبح حزينة، مشفقة إلى الحد الأقصى، ليس فقط لموتها، وإنما لفكرة الموت ذاتها.

يقول الراوي وهو يرقب سقوط تلك الطيور: «.. تطلق صراخاً حاداً، ويتهاوى بعضها إلى موته الحتمي في أودية عميقة كهموم القلب» ويظل ذلك الهم مصدر وجع دائم رغم مرور السنين «وحتى الآن لم أتعلم لغة الطير» بل أكثر من ذلك يقول لتلك الطيور، في محاولة للتعبير عن التعاطف معها، لتبادل الأدوار: «أعطني جناحيك أعطيك منزلي».

وهكذا يبقى الموت النغم السائد الذي يتردد في الرواية من البداية إلى النهاية، وإن أخذ أشكالاً متعددة، وبعض الأحيان أشكالاً مموهة أو خفية.

فالأب الذي أحب الحياة، وعشق الغناء والناس وخضرة الأمكنة، وبذل أقصى الجهد من أجل لقمة نظيفة يحصل عليها بعرق الجبين، ما لبث أن أصيب، وقع فريسة حمى مفاجئة، وحين أستدعي الطبيب لعيادته، اكتفى الأخير بأن زرقه إبرة، وذهب بسرعة لزيارة الآغا، المتنفذ، ليشرب معه القهوة. وخلال المساحة الزمنية القصيرة بين الزيارتين يتداعى الأب، يقترب من النهاية «كان وجه الأب نحيلاً وبلون العسل المحروق» وحين ينظر إلى ابنه الصغير، الراوي، تفيض عيناه بحزن ثم «تمتد يد أبي وتقبض على يدي. يأخذها إلى فمه ويقبلها» «وحين يسند وجهه إلى وجهي يسأل باعتذار: شو كتك لحيتي؟» ويستدعى الطبيب من جديد فيصل هو ورجل الدين معاً، وتكون مهمته الآن ليس معرفة تأثير أدويته، أو انقاذ المريض، وإنما الاتفاق مع الكاهن لاقتسام الليرات الثماني الباقية لدى المحتضر، إنهما يفعلان ذلك ببراعة وبخلسة، وينتهي الأب «... توفي والدي فجأة في الثلاثينات من عمره دون إرث من أي نوع». «اختطف تيار الموت أبي إلى عالم آخر. هدأ وجهه كورقة خريفية صفراء. هبط الموت إلى الكفرون المشرفة على أودية خضراء وبحث عن روح أبي المتعبة التي قاست طويلاً في كروم لم تثمر. هبط الموت كعقاب واختطفه وحلق به بعيداً».

وماذا يكون تأثير الموت على الصغير؟ «هبطت إلى قاع البكاء واختبأت. يتجاذبني الناس ويمتزج بكائي ببكائهم. أسمعهم يبكون فأشهق، ويسمعون شهيقي فيملأون السماء بنواحهم».

لقد مات الأب بعد عودة زوجته بأيام من المستشفى. والأم لاتنسى، أو بالأحرى ترفض النسيان حتى بعد مرور السنين الطويلة، فهي متأكدة أنها ستعيش، لكن بالشقاء، إذ رغم أن الأب افتداها و«أخذت بقية عمره» إلا أنه ترك العبء عليها ومضى. تصرخ وهم يحملونه إلى مأواه الأخير: «أخذوك مني يا حبيبي. أخذوك مني. ارجعوه. بعد لم يبرد جسده. تدفنوه قبل أن يبرد جسده؟ وبهدوء رتلت: «غبت تحت الأرض كحبة من حنطة» و«من يعطيني ينابيع الدموع لكي أبكي» يترك هذا الغياب جرحاً عميقاً في القلب، ويضع الأسرة الصغيرة على شفير الهاوية. فصدى بيتي العتابا اللذين اقترنا في وعي الصغير بموت الأب يظلان يترددان كجواب وقرار بلا انقطاع:

بكيت ويا يوم توديعك نحت فيه   وقلبي صخر ازميلك نحت فيه

وطيفك لو اتى زائر نحتفي فيه   بعواطف مثل قطر الندى

وبين غياب الأب ومحاولة الوصول إلى الشاطئ الآخر، هناك حياة طويلة حافلة بالعذاب والمعاناة تعاش، وتكون الأم الربان الذي يواجه المصاعب ويتحداها. إذ بعد أن تتلقى العبء، تحاول أن تنهض بالمسؤولية كلها من أجل أن تعيل الصغار، فتعمل خبازة ثم لاقطة في أرض مشرق، وحين تقسو الحياة أكثر، وتنسد أبواب الرزق، ينفتح وهم السراب: الهجرة. وتبدأ تلك الرحلة إلى بيروت، إلى المجهول.

من الكفرون إلى صافيتا سيراً على الأقدام، ومن هناك «بالبوسطة» المتجهة إلى بيروت، ويكون «عدد الدجاج المربوط أكثر من عدد الركاب في السيارة» أما الجدي المسافر في السيارة ذاتها فإنه يشبه الجدي الذي بيع

قبل أيام إلى اللحام لتدبر مصاريف الطريق.

وتصل «البوسطة» إلى بيروت ليلاً. الابنة الصغيرة تلبس قبقاباً خشبياً، يقول لها الأخ الأكبر، الراوي، أن تنزع القبقاب وتسير حافية لئلا تزعج المدينة، تستجيب الصغيرة دون اعتراض!

أما المدينة ذاتها التي بدت ملونة ليلاً حين وصلتها القافلة التائهة، فقد أصبحت شيئاً آخر في اليوم التالي، ثم في الأيام الأخرى، لأن الحياة في المدن الغريبة كاوية شديدة القسوة، وفي أحيان كثيرة خادعة، فإذا كانت المدن القريبة هكذا فما هو حال المدن البعيدة؟

هنا تنتقل الرواية من الأيام البعيدة إلى اللحظة المعاشة، كي تتيح لنا فرصة المقارنة. فلنكولن مثلاً محرر العبيد، بعد أن أصبح ماضياً ومجرد رمز، اختير لتمثاله مكان بعيد، نسبياً، عن البيت الأبيض، إذ لو كان قريباً «لاضطر أن يراقب خلفاءه ينامون في فراشه، ويرددون كلماته خارج محتواها».

منذ الهجرة الأولى إذن، منذ أن فُقد المكان الأول، الأليف، أصبح الترحال والانتقال قدراً، أو ربما عقوبة، وخلال التيه المستمر، يصبح التكيف، وبالتالي الاقتناع، أن هناك مكاناً يشبه الكفرون مستحيلاً. وهكذا يبقى المكان الأول ندبة في القلب وعبئاً محمولاً على الأكتاف.

ففي أعماق الغابات الأميركية الخضراء، بالقرب من الينابيع والشلالات، بين الضباب على ذرى الجبال، ورغم أن عيني الراوي ترى كل ذلك بمتعة أقرب إلى اللذة، فمن شأن هذه المناظر أن تحرض الذاكرة لاستحضار الكفرون، بحيث تصبح ظلاً يرافق المهاجر في كل خطوة.

يفعل الراوي ذلك لئلا ينسى جذره الأول، وكي تبقى الكفرون

موجودة ومستمرة، وليس مجرد بند في الذاكرة يحضر ويغيب تبعاً للمناخ النفسي، للصعوبات التي تواجه المهاجر في مكانه الجديد. أما حين يعود إلى الكفرون في إحدى الزيارات، وغالباً ما تكون الزيارة سنوية، فيهتف: «ما أروع العودة، وما أروع أن تتشابك الأيدي وتتلاصق الأكتاف وترتفع الأصوات بالغناء».

يقول ذلك ليس من قبيل التعصب إنما لأنه اكتشف الصورة الأخرى، الحقيقية، للمكان الذي يعيش فيه الآن، أميركا. فالعلاقات، مثلاً، بين البيض والسود غير قابلة للتسوية «أراهما عالمين لايلتقيان إلا في الخطابات السياسية». وأكثر الأشياء التي تحصل هناك دافعها الرفاه... حتى التغيرات الكبرى فإن الذين يقومون بها هم المرفهون: «فثورة الأزياء وأساليب العيش... هذه هي الثورة التي يجيدها المرفهون». أي أنها «احتجاج مرفه ضد نظام يؤمن لهم الرفاه» ليس ذلك فقط، إن الأميركيين «قتلوا الهنود الحمر مرتين، مرة برصاص بنادقهم، ومرة برسم صورة سلبية لهم كي يسوّغوا القتل» و«الصورة التي رسموها للهنود الحمر ثم للسود يرسمونها الآن للعالم الثالث». حتى إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما «كان عملاً إنسانياً لأنه أوقف الحرب» حسب قول مسؤول أميركي!

إن العلة التي تقرض مجتمع الرفاه الأميركي، أفراداً وجماعات، تكمن في الخطأ بوضع الأسئلة، فالجميع يسألون كيف يُفعل الشيء ولايسألون لماذا يفعلونه، وهذه الطريقة في السؤال ستقود إلى المأزق، إذ ستؤدي إلى الاختناق تحت ظل هذا الركام، تماماً كشراهتهم في تناول الطعام، ثم الحيرة في مواجهة السمنة والبحث عن طريقة لتخفيف الوزن!

الهجرة لم تكن حلاً، والتكيف مع المجتمع الجديد كي يصبح واحداً منه أمر بالغ الصعوبة، فالجذر الأول لايزال قوياً، ولا يكف عن المناداة والتحريض، والمجتمع الجديد وهم أو أقرب إلى الوهم. بل أكثر من ذلك:

إن تراث الطفولة لايزال مسيطراً. يقول الراوي «عندما أنزل من السيارة أربت على مؤخرتها، والسبب: في طفولتي كنت أركب البغل، وعندما أنزل عنه أربت على مؤخرته متشكراً». وهذا ما جعله يختلف عن الكثيرين في النظرة إلى الوطن، وبالتالي يعزف عن مشاركة الآخرين في ذلك الاحتفال الكرنفالي بالحنين الشكلي، أي لا «أمارس الوطن مع الآخرين بأكل الكبة والتبولة والحمص والفول ورقص الدبكة» إنه لايفعل ذلك لأن الوطن أشد عمقاً وكثافة في تكوينه، وبالتالي هو الذي يشكّل نظرته ومواقفه وطريقته في التعامل.

العبارات السابقة تم انتزاعها بالقوة، إذا جاز التعبير، من الرواية، لأنها، رغم أهميتها، وردت عرضاً، بخفاء، فحليم بركات، الآن، يكتب رواية، يتعامل مع أداة تعبير لاتحتمل الكثير من المواقف والمناقشات السياسية، مع الإشارة أنه حين يريد التعبير عن موقف سياسي لايتردد في ذلك، وقادر عليه، ولعل كتابه الذي صدر في أعقاب حرب الخليج الأخيرة خير دليل على ذلك.

ليس ذلك فقط، إن روايةً بهذه الرهافة، بذلك الشجن الذي يزنرها من البداية حتى السطور الأخيرة، تلجأ إلى البوح، إلى الاعتراف للنفس قبل أن تكون موجهة إلى الآخر، لذلك تعزف عن الوعظ، عن تسجيل المواقف، «لأن الكتابة عندي (ويعني هنا الرواية تحديداً) اعتراف بأسرار مكبوتة». ولعل حليم بركات في هذه الرواية يريد أن يوفي ديناً تجاه ضيعته، تجاه طفولة، وأيضاً مع الأشياء الحميمية الأخرى، وهذا ما جعله يعتمد أسلوباً أقرب إلى الصدق الجارح، وإلى تناول قضايا يتردد الكثيرون في عرضها بهذه الصراحة، بهذه الجرأة. يقول في بداية الرواية: «تفرج يا حبيبي وشوف| حليم بركات عالمكشوف».

إن رواية من هذا النوع تتطلب، بالإضافة إلى الشجاعة الأدبية،

مستوى من الحساسية في اختيار زاوية النظر، طريقة تركيز الأضواء، أي ما يعتبره الروائي أكثر أهمية، مادة وطريقة معالجة، شريطة أن يكون ملتصقاً بالتجربة الحية المعاشة. أما إذا تطابقت الحياة والتجربة، إذا تساوت الفكرة بشرطها الإنساني، فعندئذ نصل إلى الصدق، وبالتالي إدراك الغنى الحقيقي للحياة، خاصة إذا ارتبطت بإنسان نعرفه، بمنطقة تعني لنا شيئاً، وتحديداً في الزمن الذي نعيش فيه.

لقد أخطأ عدد من الروائيين الذين انحدروا من الأرياف حين غرقوا في «حياة» المدن التي سكنوها في وقت لاحق، إذ نسوا، أو أهملوا، الأرياف التي جاءوا منها، فلم يسجلوها، ولم يستطيعوا التعرف بعمق على «روح» المدن التي أقاموا فيها، وهكذا أصبحت كتاباتهم دون انتماء، دون جذر حقيقي، وبالتالي كانت الخسارة مضاعفة إذ لم نتعرف على أريافهم، وبدت المدن التي كتبوا عنها ملفقة، خارجية، وبعض الأحيان غير واقعية.

يقول حليم بركات في الصفحات الأخيرة لطائر الحوم، وكأنه اعتراف أخير: «منذ تركت الكفرون صغيراً، خضت العالم. دخلت معاركه على جميع الجبهات. خارج المعركة أكون مثل سمكة خارج الماء. في المعركة أكون مثل أسماك السلمون (....) تسبح في الأنهر الكبرى ضد التيارات صعوداً تجاه المنابع الأولى التي ولدت فيها. ما أن تصل بعد كفاح مرير حتى تضع بيوضها.. وتموت».

لايعني ذلك أن يحصر الكاتب نفسه في موضوع لايغادره، ولكنه يشير إلى أهمية التجربة والصدق في التعبير عنها. فحين يتصدى الكاتب لموضوع يعرفه جيداً فإنه يقدم إضافة جديدة لما هو مكتوب اعتماداً على الخبرة.

وإذا كانت شجرة الصفصاف تنحني نحو جذورها كلما تقدمت بالعمر، كما يقول الراوي، فإن الحنين للطفولة، إلى الأمكنة الأولى، يصبح

ملحاً إلى درجة يطغى على كل ما عداه، ولاينطفئ هذا الحنين إلا بأن يفيض إلى الخارج، أن يَشرك به الآخرين، وهذا ما يحاوله عدد من الكتاب، وهذا ما فعله حليم بركات في «طائر الحوم».

فالطفولة التي أصبحت ماضياً غير قابل للاستعادة، وبدأت تضيع في غياهب النسيان «وما أكثر الأشياء التي أضعناها، لذا أتمسك بذكريات الطفولة، أستحضرها مثل ثمرات المشمس والرمان في بدايتها» فإن الكتابة عنها بمثابة رد اعتبار، أو ربما استعادة وتعويض في آن معاً، وهي الصيغة التي تداري تعب الروح، وحتى انقاذها، وذلك بالانحناء على الجذور، بملامسة الأرض التي أنبتتها، لعل البذرة تنبثق من هذه الأرض مرة أخرى!

والأرض التي هي أصل الأشياء، وهي الأم الكبرى، تتمثل في أحد مظاهرها بالأم الفعلية التي لا تقل أهمية عنها، أو هي صورتها الصغرى، تعبيرها المباشر. وهذا ما يوليه الكاتب كل عنايته وهو ينسج صورة الأم في الرواية. إذ يستعيد حركاتها، كلماتها، اللحظات الصغيرة والكبيرة في مسيرتها الشاقة، ليؤكد استمرار الحياة وتواصلها، وليقول أيضاً أن الذاكرة، في حالات كثيرة، تتجاوز الشخص الفرد لتصبح ذاكرة المجتمع.

وفي هذا الجانب تحديداً يعتمد الروائي على الذاكرة الجمعية، على الأمثال والحكم السائرة، كما يعتمد على الأغاني التي تحمل مقداراً هائلاً من الدلالات. فإذا لم تكف كل هذه الحمولة، لايتردد في اللجوء إلى الأحلام يستعين بها ليقول لنا ما يدور في العقل الباطن من الرغبات، ولعله في هذا الجانب يماثل همنغواي حين استعان بالحلم في «الشيخ والبحر»، ليقول لنا أشياء اعتبرها ضرورية لاستكمال معماره الفني.

ورغم أن منطقة وادي النصارى، بما فيها الكفرون، مليئة بالخضرة، ولاينقصها المطر، إلا أن الذاكرة البدوية للروائي لاتكف عن مراقبة السماء انتظاراً للمطر «...آه يا مطر، يا سر الخصب والولادة» إذ حين يجيء تتغير

الحياة والعلاقات، وبالتالي يتغير مزاج البشر: يتراجع الخوف، ويستقر الناس في أماكنهم؛ وفي مواسم الحصاد، أو بعد جني الثمر، تنعقد الزيجات وليالي السهر، وترتفع أصوات العتابا، ويتبادل الجميع كؤوس الفرح.

أما إذا انقطع المطر في الوادي أو حواليه فعندئذ تضيق حياة البشر، وتبدأ المعاناة، كما ترتفع راية السفر كصيغة لمواجهة المصاعب والتحديات، وهذا ما يفسر وجود أعداد كبيرة، نسبياً، من أبناء هذه المنطقة في المغتربات، وهذا ما يفسر أيضاً اضطرار الأم في الرواية لأن تلجأ إلى بيروت لانقاذ الأسرة، بعد أن غاب معيلها وضاقت فرص الرزق»

ورغم «تراث» أبناء المنطقة في الاغتراب، وجرأة الكثيرين على اقتحام هذا الطريق، إلا أن الرابطة بالضيعة، واستمرار العلاقة معها لاتنقطع أبداً. تبدأ، أول الأمر، بإرسال النقود كي يستطيع الباقون مواجهة أعباء الحياة، وتكتمل بأن يعود المهاجرون ليقضوا أيام الشيخوخة إلى جانب الينابيع التي رأوها حين تفتحت عيونهم على الحياة، وفي مياهها سبحوا وهم عراة، واكتشفوا على ضفافها أولى لذاذات المتعة، سواء بقطف الثمار المبكرة أو التعرف على الجنس الآخر، أو انتظار الطيور الموسمية التي لاتخطئ أبداً في مواعيد وصولها.

يقول الراوي، وهو يلخّص علاقته بالضيعة: «الضيعة وأناسها وينابيعها وتلالها وأوديتها وطيورها وطرقها وأزهارها وأشواكها وأحزانها وأفراحها شرشت في نفسي. لا أحد، لاشيء يقتلعها من نفسي. وكلما ذبلت شجرة حياتي، كلما نبتت شجرة اخرى من جذورها العميقة العميقة». أما عن طبيعة الناس فيقول: «غريب أمر أهل الضيعة: يسخرون من المصائب ويخرجون منها معافين، كأن شيئاً لم يحدث».

أما عن اكتشاف الجنس الآخر، وبمقدار ما تختلس الفتيات النظر إلى الصبية وهم يسبحون في النهر عراة، فإن الصورة التي ترتسم في ذاكرة

الفتيان أشد سطوعاً: «حين تسبح الفتيات في النهر بثيابهن وتبتل تلك الثياب، تبزغ خيرات الأرض مغلفة بضباب شفاف» فيتولد الحنين إلى الاكتشاف، ويحلّق الخيال وهو يصرخ: «ما أجمل غموض الجسد» وهذا ما يجعل الالتقاء، الالتحام، يوماً، أمراً حتمياً لأن: «حدس الجسد لايخون».

وهكذا تكتمل الدورة: النبتة التي انبثقت من هذه الأرض إليها تعود، والمياه التي تتدفق من شقوق الصخر، وسارت في الوادي العميق، لاتلبث أن تتبخر لتصبح غيماً، ويجلب ذلك الغيم المطر، ومع المطر تتجدد الحياة وتتواصل. وشبكة الروابط والعلاقات الخفية تجمع الناس هنا وتفرقهم، كما تجعل الكثيرين في حالة من الخوف والانتظار، كما تحملهم على سرقة الفرح، لأن الفرح لحظة، والموت يترصد الجميع، وهو النغم السائد، كما أشرنا، في الرواية من المطلع إلى الختام.

لقد قدّم حليم بركات في هذا العمل قطعة، ولعلها القطعة الأجمل، من روحه، وحاول، بكثير من الإيجاز، أن يقول أشياء كثيرة من القلب. وحين تخرن الكلمة المنثورة، وتقصر عن إيصال ما يريد أن يقول، يلجأ إلى الشعر، إلى شعره هو على شكل مناجاة، أو إلى العتابا، وقد أحسن اختيارها، لتساعده في القول، لأن العتابا تبوح وتضّج وتشفي بحيث أن «أي طبيب نفساني لايفعل ما تفعله العتابا». وهكذا استطاع ببراعة مدهشة أن ينقل الشعر من الزخرفة إلى الفعل، من السكون إلى الحركة، مما أدى إلى دفع الحدث في الرواية، وإلى إغنائه درامياً، وإضافة عناصر جديدة إليه، ولعل الحال هنا يشبه أجواء بعض «الليالي» في ألف ليلة وليلة، حيث يتحول الشعر إلى جزء من البنية الدرامية للعمل.

يقول وهو يلخص شعوره بالغربة:

جمال محملي وجراس بتعن   أيام المضيت علبال بتعن

حملت بضاعتي ونزلت ايبعن غريب وما حدا مني اشترى

أما الأم التي واجهت المصاعب كلها، وتجاوزتها، وظلت نغماً حزيناً على امتداد الرواية، فإن بيتين من العتابا، يوجزان معاناتها، تقول:

عنيت وعنيت عنيت شبه البكر عالدولاب عنيت

لولا الصبر والتشبيه جنيت ورافقنا وحوش الفلا

وإذا كانت هناك كلمات أخيرة، فأولها هذا الحشد الرائع من الألوان التي يحسن حليم بركات استخدامها في هذه الرواية، إذ كثيراً ما تتبدى على شكل زهرة مفردة أو على شكل حقل مليء بتنوع الألوان، ولعل ألوان الخريف بالذات هي التي تحظى بالإيثار لديه، إذ تبدو وكأنها في بداية رحلتها وليست في نهاية هذه الرحلة.

إن أحد نواقص الرواية العربية المعاصرة أنها لاتتعامل مع الألوان إلا بالحد الأدنى، أو أنها تحشد ألواناً ملفقة بحيث تشوش الصورة أكثر مما تساعد على رؤيتها بوضوح. حليم في هذه الرواية جاء ليعيد للألوان اعتبارها ودورها.

أما الكلمة الثانية فتتعلق بالمفردات العامية التي استعملها في عدة مواضع، وكانت وحدها المناسبة والضرورية. إذ رغم البيئة المحلية، والخاصة أيضاً، وغالباً ما تكثر فيها اللهجة، إلا أنه لجأ إلى معادلة محكمة. ضمن عناصر هذه المعادلة استخدام بعض المفردات أو التعابير التي يمكنها وحدها أن تؤدي المعنى، وتضفي عليها ظلالاً، دون أن ينزلق الروائي إلى مجاراة الموجة التي تريد تكريس العامية.

لقد وردت في ثنايا العمل عبارات أو مفردات مثل: «من قلبها علينا» و«بكلّت» «شرشت» أو «يا دلي صرت انسى وصوتي ما يطلع» وكانت وحدها التي تؤدي المعنى بدقة، وهي في نفس الوقت أقرب إلى الفصحى،

ويمكن فهمها بسهولة من السياق، ومن شأن هذه الطريقة في الاستخدام أن تفصّح جزءاً من العامية، وأن تجعل اللغة أداة مليئة بالحياة وقادرة على التلبية.

والكلمة الأخيرة التي يمكن أن تقال هنا: أن الكفرون قبل الرواية شيء وبعد الرواية شيء آخر.

وأسمح لنفسي، هنا، أن أتحدث عن تجربة. إذ رغم زياراتي المتكررة إلى وادي النصارى، وبشكل خاص الكفرون، ومعرفتي بالمنطقة وبعدد من المقيمين فيها، إلا أنها بدت لي شيئاً جديداً ومختلفاً بعد قراءة «طائر الحوم». فهذه الرواية فتحت عيني على أمداء أوسع، وجعلتني أسلك طرقاً خفية بين البساتين، وصولاً إلى الشير، أو أصعد في جبل السيدة بحثاً عن المعالم، وجعلتني أيضاً أنظر بتدقيق في وجوه الناس، إذ ربما أرى بعضاً منهم خرج من «طائر الحوم».

«طائر الحوم» أو «اهبط رحيماً أيها الموت على الكفرون» رواية جديرة بالانتباه والتقدير لأنها مكتوبة بدم القلب، ولأنها تقول أشياء كثيرة وجريئة.

موت طائر الحُوم

فجأة ظهرت طيور الحوم في سماء الكفرون، فحدث صخب هائل.

حلّقت معلنة شموخها وبدايات الخريف بعد صيف حارّ ونهايات مواسم العنب والتّين والرّمان.

تراكضنا حفاة نراقبها بشغف مأخوذين بأشكال طيرانها وأجنحتها الضخمة وأعناقها الطويلة. تُقبل أسراباً أسراباً، مهيبة، راسمة أشكالها بخطوط سوداء بين زرقة السّماء الصافية وظلال الأشجار في النهر.

في البداية أقبل سربٌ منها اتّخذ شكل علامة النّصر يتقدّمه طائر جبار يتفرّع عنه خطّان مائلان من جماعته. وتبعته أسراب أخرى من مختلف الاتجاهات. أقبل سرب من جهة نبع كركر ونبع الشيخ حسن، وآخر من جهة نبع الشير.

تتحول علامات النّصر إلى دوائر تحلّق فوق النهر وجبل السّيدة وجبل السائح المتقابلين وجهاً لوجه بشيء من الانحراف كأنّما يتعاتبان أو يفكّران بالتّعاتب مشرفين على واد أخضر عميق كجرح تاريخي.

تفرش أجنحتها السّوداء الجبارة إلى أقصى أبعادها كاشفة عن صدورها البيضاء، تنزلق في الهواء مثل غيمة، تنقض مثل صاعقة، ترتفع مثل إله، تتجمّد في مكانها بعنفوان مثل الشمس، تتسلّق، ترتفع، تهبط، تنحدر.

نتأمّلها بشغف وقد امتلكت سماءً شاسعة تعرّت من غيومها وتزيّنت بأوشحة شفافة من نتف الغيوم البيضاء الصغيرة. تسرح في الفضاء الرحب

مسحورة بشفافيته وعُريه مثل فتاة تتأمل صدرها في مرآة الماء. بل تلعب، كأنّما نسيت جوعها وعطشها، متغافلة عن الصيّادين الذين خرجوا من منازلهم إلى السطوح والتلال حاملين بنادقهم الصّدئة.

بعد هذا الزمن الطويل كخيوط الهمّ تتجاوب في ذهني طلقات النّار دفعة واحدة، ثم متتابعة مثل خفقات قلب مضطرب. تتابع مدوية من كلّ اتّجاه وصوب كل اتّجاه كأنّما أُعلنت حرب بعد عهد طويل من السّلم المُملّ.

كل شيء يتبدّل، وفي لمحة خاطفة يتّخذ الطّيران شكل الفوضى. تتناثر الدّوائر كما لو حدث انفجار هائل في داخلها. الأجنحة، كالقلب، تخفق باضطراب. السّماء نفسها تتبدل. تتبقّع اتّساعاتها الزّرقاء الصّافية الهادئة بنتف من الغيوم الرمادية الصغيرة حيث تمّت الانفجارات.

تجفل طيور الحوم فتتوزع؛ كل على حدة، وجلة في مختلف الاتجاهات. تطلق صراخاً حادّاً ويتهاوى بعضها إلى موته الحتمي في أودية عميقة كهموم القلب. ريشها يترنّح في الهواء ويهبط ببطء.

أيضاً ما أزال حتّى الآن وإلى النهاية، لاشكّ، أذكر بوضوح كلّي صراخها الملهوف دون أن أعرف كيف أصفه حتى لنفسي وفي برهات الطمأنينة النادرة. ويقترن صراخها الملهوف بصورة ريشها الأسود والأبيض يترنّح في الهواء ويتساقط متمهّلاً كأنّما يصرّ على اللّعب البريء مهما اشتدّت الأزمات.

وهوى أمامي، كما لو كان صاعقة، عند صخرة «الضهر» الملساء تحت عش الشُوحة. يتخبط ويزعق زعيقاً حادّاً مضطرباً يختلط فيه الألم والغضب والاحتجاج والرّعب. قفزت باتجاهه أريد أن التقطه، ولكنني توقفت متخوفاً. أجزع منه وعليه. أقتربُ على مهل كي أطمئنه. يزداد تخبطاً وزعيقاً. أتراجع. أعود أتقدم نحوه بحذر وأمدُّ يدي إليه برفق.

كيف أُقنِعُه بأنني لست من نسل الصيادين؟ لا ألومه لأنه لايثق بي. أقتربُ رغم الخوف. أنحني فوقه وقد بدأ يهمد قليلاً. أمُرُّ بكفي برفق فوق عنقه الطويل. لايطمئن هو فلا أطمئن أنا لمنقاره الأحمر الصلب. ولكن لابد أن أتجرأ.

بدا بوضوح أن جناحه الأيمن مكسور ودمه يسيل فيصطبغ ريشه الأسود والأبيض بلون قرمزي حاد حار. إنه بحاجة إلى مساعدة. لا أعرف كيف يجب أن أضمد جراحه. أخاف أن ألحق به ضرراً بدل أن أساعده. أرتجفُ.

في تلك البرهة الحرجة. أقبل رئيف مندفعاً كما لو كان نمراً جائعاً استشم رائحة دم الفريسة. وقبل أن أدرك، انتشل الطائر الجريح مني وهبط بسرعة إلى النهر يعرضه بفخر على من يصادفهم. وعندما تجمهر حوله الناس وازدادت حشريتهم، تسلل من بينهم خوف أن ينتشلوا الطائر منه كما انتشله مني.

عرفت فيما بعد أن رئيف ذبح طائر الحوم ونتفه وشواه وأكله. فقط بعد زمن طويل اعترف أن لحمه قاسٍ ومُر. ولكنه لم يأسف، فقد باع ساقيه الطويليتين إلى رجل يصنع من سيقان طائر الحوم مشارب سيجارات للمدخنين الأغنياء.

□□□

الشيخُ الكبير

بحنان تُمسك أمّي يد منى التي وُلدت في أميركا ولاتعرف العربية، وتمر براحتها فوق راحتها الصغيرة، مرددة:

يَـا حَـاح يَـا بَـاح   يَا أَيدين مُنى يَا حِلوين يَا ملاَح

وتستأنس مُنى بهذه اللعبة الطريفة فتتطلع إلينا تطلب تفسيراً لما تقوله أُمي التي تتابع مشيرة إلى وسط راحة الطفلة بعدأن تمر بأصابعها فوق الخطوط المتقاطعة، «كان هون في بركة مي. هيدا دبحه، هيدا نتفه، هيدا شواه، وهيدا الشيخ الكبير (تتمسك بإبهامها وتضخّم صوتها) بياكل كثير».

وتدب أصابع أمي مثل نملة ببطء ثم بسرعة فوق ذراع مُنى حتى كتفها فيما تتلاعب بصوتها:

دب دبيـبـي دبيـهـا   روحي للسوق بيعيها
واشتـري بتـك حـلاوي   حلّي ضريساتك فيـها

وتزكزكها فجأة تحت إبطها فتضحك الصغيرة من أعماق قلبها مع أنها لاتفهم العربية. ربما ما كانت تضحك لو فهمت، فهي تحب العصافير. مرة أخرى تتطلع وتطلب تفسيراً، ولكنني أتجاهل طلبها خوفاً أن أصدمها بشراسة التعامل مع عصفور عطش جاء يشرب من بركة اليد المليحة.

□□□

تَحَوّلْ إلى جِذع شَجَرَة

حتى الآن لم أتعلَّم لغتك يا طائر الحوم. لم أتعلّمها من زعيقك. ربما سأتعلّمها من صمتك وجناحك المكسور وريشك المترنح في الهواء. ومع أنني لا أفهم لغتك الغامضة، أظن أنني أعرفك. دخلتَ لتتوالد في أحلامي وتتساقط في كوابيسي من زمن بعيد. طالما سمعتك تنطق لغات الجزع والجوع والشبق. تركتني أتأمل مصرعك في وحدتي الأبدية أنا هذا الطفل الكفروني، صديق الينابيع والرمان والصخور وشجرات الصفصاف التي تتمرأى بالنهر وتسكن لاوعيي.

أسميّك طائر الحوم. ماذا تسمي نفسك؟ هل لك اسمٌ غير الذي منحناك إياه؟ ما علاقتك باسمك؟ إذا أردت نتبادل الأسماء. أعطني جناحيك أعطك منزلي. هل يغريك عري السماء كما يغريني عري الحبيبة؟ لماذا تلاحقني جراحُك؟

تتداعى في أعماق تلك الذكريات بعد مرور مايزيد عن حوالي أربعين سنة كأنما تستيقظ من عالم خفي عميق في الداخل. لماذا؟ لا أدري لماذا الآن بالذات؟ صحيح أننا، حبيبتي وأنا، كنا نراقب عصفوراً أزرق يستحم في بركة صغيرة صنعناها للطيور في حديقة بيتنا. وما إن طار إلى شجرة الجيران حتى هبطتُ إلى أعماقي ألاحق تداعيات غريبة تجتاحني كموج المحيط على شاطئ الجسر الرملي.

وأعوم قليلاً فوق الموج عندما تسألني حبيبتي: لماذا تنظر إليّ هكذا؟

أجبتها دون تردد محاولاً التمويه: أنظر إلى نفسي فيك.

بدا واضحاً أنها لم تقتنع. هزّت رأسها وعلّقت باستخفاف: لم أكن أدري أنني مرآة.

وباستخفاف مماثل قلت: أرى نفسي جذع شجرة في وجنتيك المائيتين.

ويتحول استخفافها إلى سخرية: جذع شجرة عتيقة تحوَّلتْ مسكناً للنمل.

وأصحّح: بل غصن صفصافة يتكون.

حولت نظرها عني تفصح لي دون كلام أنني أهذي، مع أنها ألفت تداعياتي الغريبة. أركّز نظري عليها ولكنها تستمر في تجاهلها.

هي أيضاً غرقت في داخلها وانبسطت ملامح وجهها مثل سماء صافية في يوم خريفي. تمنيت لو أعرف ما يجول في خاطرها متسائلاً فيما إذا كانت أسراب الحوم تعبر سماءها هي أيضاً. تجنبت نظراتي كي تحتفظ بمسافاتها، على ما أظن، واستغرقتْ في تأملها حتى كدت أختفي من عالمها.

ولما لم يكن لديّ ما أفعله عدت أغرق بدوري في تأملاتي الخاصة. ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي تطول فيها الأزمة في علاقاتنا. في السابق لم آخذ شكواها جدّياً رغم إن ما بدر منها لم يكن مجرد لحظة غضب عابرة. ربما لم آخذ شكواها جدياً لأنني لم أكن قادراً أن أفعل كثيراً لتغيير أوضاعنا. ولكنها عنت حقاً ما قالت حينئذ: اسمع زهقت من هذه العيشة. شغل، نوم، قراءة الجريدة، مراقبة التلفزيون، دفع حسابات، عزائم، طبخ، جلي. إلى متى تستمر هذه العيشة؟ ما معناها؟ متى نتمتع بما نملك؟ غداً لن نملك؟ غداً لن نملك حياتنا. انظر إلى أمك. ماذا تملك من حياتها؟ هل هناك ما هو أثمن من العقل؟ لم تعد تملك عقلها. فقدت سيطرتها

على جسدها. لماذا تختلف معها وتسمم بدنك. المرأةُ كبرت. تنسى أنها في السابعة والثمانين من عمرها. لاتستطيع أن تغير عاداتها. خلص. خلاف، صراخ، سَمْ بَدَنْ، ثم شعور بالذنب. خلص، قرفت. دبر الأمر.

أدركت يومها أنها على حق، ولكنني فعلاً لم أعرف ماذا يمكن أن أفعل. لم أستطع أن أقبل الحقيقة بأن أمي خرفت فأتوقع منها دائماً أن تستعمل عقلها الذي لم تعد تملكه كي تستعمله. أفلت من قبضة يدها ومن قوانينها الذاتية وأنطلق في مختلف الاتجاهات في فضاء واسع مضطرب.

ولم أفعل شيئاً، ربما لأنني حتى وقت قصير كنت أظن أنه بإمكاننا، حبيبتي وأنا، التغلب على أية أزمة لمجرد أننا متحابان. تجاهلنا المشكلات اليومية حتى تراكمت وشكّلت أزمة. طبعاً، كنت أعرف أننا سنتغلب عليها نبدأ من جديد. أحلم أن نتحرر من كل المسؤوليات بما فيها العمل ونسافر إلى مختلف أنحاء العالم. ولكننا لانفعل شيئاً يستحق الذكر. ننهض صباحاً، نشرب القهوة، نقرأ الجريدة، نمضي إلى العمل فنغرق في دهاليزه وتفاصيله، ونعود مرهقين فنشرب كأساً، نأكل، نراقب التلفزيون، وننام في مقاعدنا قبل أن نذهب إلى الفراش. وأخيراً اعتدتُ لعب الطاولة مع أنني كنت دائماً أستخف بها وبأي نوع من التسلية الفارغة. وبالإضافة إلى ذلك، وجدت نفسي أكتب لصديق في الكفرون أطلب منه منقلة كتلك التي كنا نلعبها في الصغر، فكتب يقول إن اللعبة زالت من الوجود وإن الجيل الجديد لم يعد يسمع بها. بعد هذه التطورات في حياتي علّقت حبيبتي «إنك تعود إلى أصولك. أصبحت تلعب الطاولة، وتحمل مسبحة وتريد منقلة. مستقبلك أمامك. غداً تدخّن نرجيلة وتلبس سروالاً».

مضت على زواجنا ست وعشرون سنة، وبعد أشهر نحتفل بمرور سنة أخرى. تُرى نحتفل؟ كم فكّرنا أن نحتفل بيوبيلنا الفضي، ولكننا انشغلنا بأمور أخرى. قلت لنفسي: بلا مفاجآت، لأشاركها في البحث ونخطّط معاً.

تباحثنا وقرّرنا أن يكون الاحتفال متواضعاً وبسيطاً كعرسنا الذي اقتصر على دعوة بعض الأهل. أمضينا إجازات سنوية جميلة، إنما قصيرة، بالسفر إلى أنحاء عدة من العالم، وكنا نعود دائماً لنستأنف حياتنا القديمة الرتيبة، ونتتبع أخبار موت البلاد البطيء كموت أمي: مزيد من المآسي، من التفتت حتى يتقاتل الإنسان مع نفسه إذا لم يجد من يتقاتل معه، من الكفاح العبثي، من الانهزامات التاريخية، من الانحدار إلى مستويات من الهزال لم نكن نتصور أنه يمكن الوصول إليها.

وأخيراً تعمّقت الأزمة بدل أن تنفرج. بعد أن لجأنا للنوم، نهضت أمي من فراشها وتجولت دون هُدىً في البيت. ولأسباب نجهلها هبطت السلم إلى غرفة سفلى دون أن تشعل الضوء فسقطت عدة درجات. اصطدم رأسها بالحائط والحاجز الحديدي وهمدت في أسفل السلم. سمعنا ارتطامها المتكرر فركضنا نستطلع ما حدث. يرقد جسدها الصغير فوق رأسها وتتنفس بصعوبة. أضطربُ، كما اضطربت أمام طائر الحوم الجريح، لا أدري ما أفعل. أحملها إلى فراشها وتنادي حبيبتي الإسعاف فيحضر تواً ويحملها إلى المستشفى. نلحقها ونجلس في ممر قسم الطوارئ ننتظر الحكيم. ننتظر لوقت طويل. يزداد اضطرابها ويزداد اضطرابنا. يقبل متباطئاً. يأخذونها لقسم التصوير بالأشعة. يطول الانتظار مرة أخرى. اجتازت عقارب السّاعة الثانية عشرة، ثم الواحدة بعد منتصف الليل، ثم الواحدة والنّصف. يعود الحكيم ليخبرنا أنها كسرت ساعدها ومعصمها وربما أثرت الصدمات في رأسها تأثيراً بالغاً.

أتمدد على كرسي قرب سريرها طوال الليل. يبلغ اضطرابها أقصاه فتحضر الممرضة وتخدّرها وتربطها إلى السرير كي لاتسقط. تمر أيام. تمر ليال. يقول الحكيم إنَّهُ لا يستطيع أن يفعل أكثر من جفصنة ذراعها المكسور، ويضيف إنها قد تعيش في هذه الحالة سنوات كما يمكن أن

تموت في أية لحظة.

منذ تلك الساعة وهي تعيش في سديم فسيح بين الوعي واللاوعي، بين الموت والحياة، بين الغيبوبة وشبه اليقظة، بين الصمت المطلق والاضطراب المطلق، بين التعلق بالحياة والرغبة بالعودةإلى التراب. لاتدرك ما حصل لها وأين هي ومن نحن. ننسلخ من وعيها فتهيمن على وعينا. تستدعي أسماء عزيزة من ماضيها السحيق. غاب الحاضر فاستيقظ الماضي. تنادي أخواتها لطيفة ونظيرة وندى، وخالها رشيد، وخالتها كلثم، وبنات خالتها خشفة وبربارة، وصديقة الطفولة فضة.

واستبشرت مرة أنها تستعيد وعيها، فقد سمعتها تسأل الله بصوت مسموع لماذا ماتت أمها قبل أن تعرفها ولماذا مات زوجها شاباً ويرفض أن يأخذ روحها هي ويريحها من العذاب.

سألتها من هي فقالت: أم حليم.

طرت من الفرح فقالت: أم حليم.

طرت من الفرح وسألتُ: وأنا من أنا؟

ـ أنت حليم، حشيشة قلبي.

ـ أنتِ حشيشة قلبي.

قبّلت جبهتها، وجهها، يدها وأنا أردد، «عفاك يا أم حليم عفاك»، وأعطيتها قطعة الحلوى مُطمئناً أنني لم أحذَف كلّياً من وعيها. وتسألها حبيبتي: وأنا، من أنا؟

تبتسم بصمت. يبدو أنها تعرفها ولكنها تبحث عن اسمها دون جدوى. ولما كرّرت حبيبتي سؤالها قالت أمي: أنتِ الغالية، أنت الآدمية بنت الأصل.

ـ طيب شو اسمي؟

ـ اسمك، اسمك؟ نسيت يا ذلي. اسمك ندي من عند ربي.

ويسأل أخي: وأنا، من أنا؟

ـ أنت. أنت تعرف من أنت. ليشُ عم تسأل؟

نضحك، نحزن، نبكي، نبتسم، وأجد نفسي أواجه الله وجهاً لوجه: اسمع: أريدكَ أن تشرح لي مقاصدك. لماذا تعذبها؟ لماذا هي بالذات؟ كيف تنسى كم صلّت لك مرات في النهار الواحد؟ كم أشعلت لك شمعاً وأحرقت بخوراً؟ كم قدّمت لك نذوراً؟ هي لاتجرؤ على مثل هذه الأسئلة. تعتبر التساؤل كفراً. لماذا تخاف التساؤل؟ لماذا تعاقبها؟ لِمَ كل هذه القسوة؟ لاتستحق. لا أظن أنها ارتكبت أخطاء لم يرتكب أسوأ منها أنبياؤك. لماذا يا الله؟ كم مرة تضرّعت إليك من أعماق قلبها: دَخيلَك مِن وقعِتِي لحفرتِي. دَخيلَك استر شيبتي.

أما زلتَ على قيد الحياة؟ متى ولدت؟ كم مليون سنة ضوئية تبعد عن الإنسان؟ هل وُلدتَ قبل الإنسان أو بعده؟ مَن خلق مَن؟ لماذا موت أبي السريع في ذروة الشباب، وموت أمي البطيء الذي لايأتي؟ هل تعاقبني بموته وحياتها؟ تستعملها وسيلة؟ لماذا العقاب؟ لا أفهم! حقاً، إنني لا أفهم. أريد أن أفهم. من الأفضل أن تجيب لأنني سألحّ بالسؤال. إلى متى تتهرّب؟ كم سنة ضوئية تبعد عن الإنسان؟ لماذا لاترحمها فتتركها تموت وهي المؤمنة بكَ إلى أقصى وأنقى حدود الإيمان. ناضلت كثيراً في حقلك. أنكرت نفسها فمارستِ الأمومة على أسمى مستوياتها. هي تقول إنك تجرّب خائفيك. لماذا تجرّب خائفيك؟

لا أتوقع جواباً، فأواجه الطبيب: الطب تقدم كثيراً حتى يستطيع أن يؤجل موتها لزمن طويل دون أن يشفيها. لايشفيها ولايتركها تموت بسلام. لماذا هذا العلاج الذي لايشفي؟ لماذا تصر على إبقائها في هذا السديم المتناهي بين اللاحياة واللاموت؟

ويجيبني الطبيب في حين لم يجبني الله موافقاً على تشخيصي ومعلناً عجزه. أعلن عجزي. الله يعلن عجزه بصمته وبُعده. يطول الموت البطيء، يطول كالظل عند الغروب. يتحول إلى شبح جبار يفرض ظلمته على العالم. متى الغروب؟ متى الخلاص؟

بقدر ما أسأل يتكاثف الغموض. بقدر ما تخذفني من وعيها تهيمن على وعيي. بقدر ما تضعف أحبها وأتعلق بها. أساهرها وأستيقظ معها.

وخطر لي أن هناك سبباً آخر لاضطرابي الهادئ حالما توقفتُ عن مواجهة الله والطب، إله هذا العصر المريض.

اقتحمت مخيلتي، حالما خرجتُ من المستشفى وتمشيتُ على ضفة النهر، صورٌ من فيلم وثائقي كنت قد شاهدته ليلة أمس:

قطعان من الثيران والأبقار الوحشية تسرح في برارٍ واسعة، تتناطح بقرونها الضخمة الحادة، تتناكح دون خجل في الهواء الطلق، تأكل غصون الأشجار والأعشاب دون عناء، وتتمدد في الظل بكسل.

وتهاجم قطيعاً، فجأة، مجموعةٌ من الذئاب. تطارد عجلاً صغيراً فتندفع أمه وحدها للدفاع عنه. انسحبت بقية الثيران والأبقار إلى مكان أمين وراحت تراقب المطاردة رافعة آذانها وأذيالها في الهواء الطلق.

دافعت الأم دفاعاً مستميتاً، وتمكنت وحدها أن تفرّق شمل الذئاب عدة مرات، ولكنها كانت تعاود الهجوم والمطاردة متبعة استراتيجية واضحة: توزعت الذئاب المهام فهاجم بعضها الأم لتبعدها عن عجلها الصغير، وهاجم البعض الآخر العجل. تحتدّ المعركة وتطول والثيران الكبيرة تراقب دون تدخل مذهولة.

ويقع العجل فريسة فتعلن الأم يأسها وتلتحق ببقية القطيع دون أن تلتفت إلى الوراء.

وأواجه العربَ كما واجهتُ الله والطب: فلسطين تسقط فريسة. بيروت تتساقط. البصرة مهددة بالسقوط. الجنوب اللبناني محتل. لماذا الأم وحدها تقاوم؟ أيتها العواصم العربية الثيران. تشمخين بقرونك مذهولة تراقبين وجلة، تتناطحين، تتناكحين سراً في الدهاليز، تأكلين الأخضر واليابس، تتمددين خارج التاريخ بكسل بليد.

ما نفع المواجهة؟ آه من المأساة المهزلة.

□ □ □

سَفَرٌ على بِسَاط الريّح فَوقَ غَابةٍ كثيفةٍ مِنَ الألوَان

كان يوماً خريفياً رائعاً تحوّلت فيه مدينة واشنطن إلى غابة كثيفة من الألوان الزاهية المتموجة المتداخلة بعد صيف حار. تماماً كذلك اليوم الذي شهدتُ فيه مصرع طائر الحوم في الكفرون. كان علي أن أسافر للاشتراك في مؤتمر بدل أن نأخذ فرصة ونغتسل من هموم تتراكم في الداخل مثل غيوم سوداء.

اتصلتُ عدة مرات بقسم الحجز لإحدى شركات الطيران قبل أن يجبني صوت امرأة متعب: أنا كاثي، هل أستطيع أن أساعدك؟

ـ نعم، كاثي، أريد أن أحجز مقعداً إلى مدينة نيويورك.

وما إن استفسرت عن اسمي ومواعيد سفري وغير ذلك من المعلومات المطلوبة عادة في مثل هذه الحالة، حتى سألتني: عندك لهجة، من أين أنت؟

ـ أنا عربي من سوريا.

وتبدل صوتها تماماً: صحيح؟ حسبتُ ذلك، أنا نصف سورية. تصوّر أنني لم أكتشف هويتي السورية حتى السابعة والعشرين من عمري. اكتشفت أنني متبناة وأن أمي الحقيقية سورية وأبي يوناني. آه، لو تخبرني عن سورية.

ـ هذا يحتاج إلى لقاء. متى اكتشفتِ أنك سورية؟

ـ آه، حقاً، أنك عربي. تريد أن تعرف عمري.

ـ لا. لا. أردتُ أن أعرف كم حاولتِ أن تكتشفي أصولك.

ـ لم أحاول كثيراً. لا أعرف كثيراً من العرب وليس عندي وقت للقراءة. قل لي هل أنت شيخ عربي؟

ـ أنا عربي، ولكنني لست شيخاً.

ـ هل أنت جميل مثل عمر الشريف؟ صوتك مثير.

قلت في نفسي إن المرأة مجنونة، ولكنني تابعتُ الحديث بشغف: لستُ جميلاً.

ـ وأنا لستُ جميلة. قل لي، فهمت أن السوريين تجار. أنا لست تاجرة ولا أحب التجارة والتجار.

ـ وأنا أيضاً لا أحب التجارة. أنا ابن قرية وأبي فلاح أو بالأحرى مكاري. وأملكِ أنتِ يجب أن تكون على الأغلب من قرية سورية.

وفاجأتني بسؤال آخر: هل عندك حريم؟

ـ الأشياء تغيّرت كثيراً. انتهى عصر الحريم. بالمناسبة الشعب لم يكن يملك حريماً.

ـ لا، أرجوك، لا تخبرني أنكم أصبحتم غربيين. لماذا تتغيرون؟ أتمنى لو أن أمي لم تأت إلى أميركا. لو بقيت في سوريا. لو ولدتُ ونشأتُ وعشتُ في قرية سورية قريبة من الناس والأرض. أفضل لو كنتُ حرمة في عائلة على الوحدة القاتلة. هنا الحياة تهدّم الإنسان. الوحدة تأكله من الداخل. لايكفي أن تملك كلباً. نحن آلة. نأكل ونشرب وننام كل بمفرده مثل آلة. لماذا تغيّرون الأشياء؟ يجب أن تحافظوا على ثقافتكم.

ـ إننا ثيران أيضاً.

أضحك دون أن أُفسر. لاشك أن المرأة مجنونة، والجنون فنون. جنونها طريف. أسمعُ صوتها ملحاً: أرجوك تكلم. صوتَك عميق دافئ جميل.

هل أنت جريء؟ صوتك جميل حقاً. تكلم. لماذا لاتسجل صوتك؟ ألوف النساء تتمنى أن تسمع صوتاً مثل صوتك. سجّل أسطوانة. تبيع آلاف النسخ. وتصبح غنياً وتعود إلى سورية وتستعيد زمن الحريم. وإذا أردت أنضمُّ إلى حريمك.

أدركت آنذاك أن الأمر تجاوز حدود المعقول واللامعقول ففكرت أن أشكرها وأنهي المكالمة. ولكنني وجدتُ نفسي أسأل: ما رأيك أن نلتقي؟

ـ لا. لا. حياتي كلها خيبات أمل متواصلة. أستطيع أن أستغني عن خيبة أمل إضافية. كنت أعتقد أنني إنسان معيّن واكتشفت أنني إنسان آخر بعد ٢٧ سنة من عمري، لا أتوقع أن تكون جميلاً مثل صوتك. هذا لايهمني كثيراً. ما أخافه هو أن أخيّب أملك أنت. لا تؤاخذني. لنغير الحديث. ماذا تعمل؟

ـ أنا روائي.

ـ آه. أتكلم إلى مؤلف!؟ في حياتي لم أتكلم إلى مؤلف! لا أصدق! سوري ومؤلف! أنت كل ما أسعى إليه. ماذا تكتب؟

ـ لا أعرف أن أجيب عن هذا السؤال. ماذا تقصدين؟

ـ تكتب أدباً حديثاً أو قديماً؟

ـ حديثاً، كما أظن.

ـ لا. لا. خيّبت أملي. لا أحب الأدب الحديث. أحب الأدب الكلاسيكي. لابد من أن يكون المؤلفون المحدثون مجانين مثل كتاباتهم.

ـ لاتنسي أننا في عصر الجنون.

ـ صحيح. رحلة ممتعة.

قالت ذلك وأغلقت التلفون. نسيتُ أن أسألها هل حجزت لي مكاناً على بساط الريح. فكّرتُ أن أتصل بها من جديد، ولكنني قررتُ أن أترك

طرافتها سؤالاً غامضاً. اقتنعتُ أن المرأة لم تكن تسخر أو تمزح، ولكنها لم تكن جادة أيضاً.

ربما كانت تسخر، أو ربما سأسافر على بساط الريح لأول مرة.

ذكّرتُ حبيبتي بالحادثة، فأكدت لي مرة أخرى أن المرأة جادة، وأضافت: أنت تعرف أن المهازل، الأساطير، الأحلام، أكثر الأشياء جدية وصدقاً. كم ردّدتَ ذلك حين كنتَ تقرأ فرويد؟

ـ هذه حقيقة أزلية، لاشك بذلك. قلتُ ذلك مع أنني أكره تعبير «لاشك بذلك»، وأضفتُ مفسراً: «طالما سمعتُ حكايات كنت أعتقد جازماً أنها لايمكن أن تحدث حتى حدثت لي فعلاً، مثل قصة دخول يونان بطن الحوت وخروجه منه. اعتبرتُ القصة مجرد خرافة حتى دخلت بطن وحش أرهب من حوت هو مدينة نيويورك».

□ □ □

دَهالِيزُ النظام

أغلقتِ الطائرة أبوابها، فربطت حزام السلامة وتراخيتُ في مقعدي مطمئناً بعد فترة غير قصيرة من الاضطراب والترقب. سررتُ خصوصاً أن الطائرة تحرّكت في الوقت المعيّن فلن تفوتني الطائرة الأُخرى التي ستقلني من نيويورك إلى مدريد فالدار البيضاء حيث سأشترك في مؤتمر كان قد بدأ.

ببطء توجهنا إلى المدرج، إلا أن الطائرة لم تلبث أن حادت جانباً وتوقفت فبدأ الاستفسار. شرح القائد باقتضاب أن عاصفة ممطرة تجتاح نيويورك فقرروا أن ينتظروا هنا.

ناديتُ المضيفة مضطرباً وجلاً وقلت إنني في هذه الحالة أفضل عدم متابعة رحلتي لأنني حتماً لن أتمكن من الوصول قبل موعد إقلاع الطائرة التي ستقلني إلى مدريد. أكّدت لي أن النزول مستحيل، ولكنها حاولت أن تطمئنني بأن جميع الطائرات ستتأخر وبأنهم سيتمكنون من إعادة ترتيب مواعيد سفري في حال إقلاعها قبل وصولي.

مرة أخرى استرخيتُ في مقعدي دون أن أتمكن من التغلب على اضطرابي الظاهر أدركتُ أنه ليس من اختيار ولابد من أن أسلّم نفسي لقدر الآلة، فقررت أن أشرب كأساً وأقرأ وأصغي للموسيقا. وليحدث ما يحدث. عبثاً أقنع نفسي بأنني «تحول دائم» على النقيض من العربي الذي يقول «أنا ما كنتُ»، ومن الأمريكي الذي يغني «أنا ما أنا». لأغني إذن مع الفرنسي «ماسيكون سيكون».

أطلبُ كأساً من الويسكي فأجده أقرب إلى الماء. أصغي للموسيقا دون أن أتمكن من التغلّب على الضّجر. أقرأ دون أن أفهم. وأنتبه أن سيدة عجوز تستأذنني بالدخول إلى مقعدها قربي. أقف لها باحترامٍ وارتباك. وقبل أن تستقر في مقعدها تقول بدعاب: آسفة لخيبة أملكَ. كنتَ ولاشك تفضّل أن تجلس قربكَ صبيةٌ جميلة وليس عجوزاً قبيحة.

أضحك دون أن أجد ما أقول وأعود أكتب بعض ملاحظاتي. وتتفحص ما أكتب فتسأل: تكتب بالعبرية؟

ـ لا بالعربية.

وينبسط وجهها كما لو أنها تفاجأت بحقيقة مزعجة، فتشرح لي بعد تردد أنها كانت تحضر لقاء في البيت الأبيض بمناسبة تقليدها وساماً لعملها الدؤوب في جمع الأموال لإسرائيل. ولما تابعت حديثها رغم انزعاجي الظاهر، فكّرتُ أن اقول لها في سبيل النكاية إنني عضو في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ولكنني كنت لاأزال أحتفظ بعقلي. لافائدة من المواجهة في هذه الحالة. انسحبت إلى عالمي الداخلي كالسلحفاة، وانتظرت تحرك الآلة التي ابتلعتني إلى جوفها وترفض أن تفرزني خارجاً فسلّمتها قدري.

وكي أضع حداً للحديث، وضعت السماعة على أذني، وبحثت عن محطة الموسيقا الكلاسيكية. كم كان سروري عظيماً عندما أدركت أنني أصغي لأوبرا ريتشارد فاغنر «الخاتم».

نزعتُ السماعة تواً وسألتُ جارتي: هل تحبين فاغنر؟

ـ أكرهه.

ـ لماذا؟

ـ لأنه نازي.

ـ تعرفين متى عاش؟

ـ لا يهمُّني.

يجب أن يهمّك. توفي عام ١٨٨٣، ست سنوات قبل أن يولد هتلر. كان فاغنر يحلم بقيام مجتمع اشتراكي. ويقال إنه حين كان قائداً للأوبرا الملكية، تجرأ أن يواجه ملكا ساكسونياً وطلب منه أن يقف إلى جانب الطبقات العاملة المستغلَّة. ماذا كانت النتيجة؟ أمر الملك بنفيه لزمن بعيد. في منفاه كتب كراساً حول الفن والثورة وقصيدة الخاتم.

وتوقفتُ عن الكلام فقد أدركتُ أن السيدة وضعت السماعة على أذنيها. على الأغلب أنها تستمع إلى فرانك سيناترا. أتجاهلها بدوري وأعود أصغي لفاغنر مأخوذاً بذلك الصراع العنيف بين الحب وشهوة القوة. أعرف تماماً أن الإنسان هو المسؤول عن إنقاذ الآلهة كما كان مسؤولاً عن خلقهم. لن ينقذ الله أمي قبل أن أحرّرها من تسلطه على مصيرها. هل أنقذه بموت أمي؟ من ينقذ مَن أيها المؤمنون الذين ورثتم إيمانكم كما ورثتم أسماءكم ولغتكم وجنسكم؟ عكس ما تقولونه، الآلهة هم الذين سقطوا بالخطيئة والإنسان وحده هو الذي سينقذهم. أوافقك كلياً يا فاغنر. أنت على حق أن الأرض الأم هي مصدر الحكمة، والفنان يعيش في أعماله. موته حياة عمله. ولكن ما معنى اللا حياة واللاموت؟

أسأل فاغنر بعد الكأس الثاني (ودون أن تسمعني جارتي): هل شاهدتَ طائر الحوم؟ هل شاهدتَ مصرعه؟ لو فعلتَ ذلك لأوحى لك بأعظم موسيقاك. أعرف أنك لم تفعل. مَن مِنَ المبدعين أعطى أعظم ما يمكنه أن يعطي؟ لذلك اسمح لي أن أخبرك شيئاً عنه. أنا متأكد أنك تحب أن تسمع شيئاً عنه. أنت تحب الرموز القوية. له علاقة وثيقة بالريح، فجناحاه الكبيران أشرعة تمخر به بحر السماء. عنقه مثل جسر بين جزيرتين. كبير، متكبر، عنيف، هادئ داخل العواصف، مهاجر باستمرار بين الجنوب والشمال (بين مخاطر الجنوب ومخاطر الشمال) مدفوعاً

بالعطش والجوع والشبق والدفء. كلما عبر عالماً تكشّف له عالم آخر. له تاريخ مع المسافات الشاسعة والآفاق المتفتحة عن آفاق أرحب من رؤياه. وله أيضاً تاريخ مع الإنسان. عرفه صياداً ماهراً فنشأ على الحذر منه، ولكن الحذر لم يخفّف كثيراً من رغبته الجامحة بالمغامرة والهجرة دائماً بين مناخات الأرض.

ولاحظتُ أنني أتكلم إلى فاغنر بدل أن أستمع لموسيقاه، فأصغيت ولكن خيالي عاد يسافر بي إلى أجواء أخرى.

بعد انتظار ساعة ونصف الساعة وأنا مأخوذ بتخيلاتي، أعلن القائد أن العاصفة توشك على الانتهاء وأنهم سيبدؤون بالتّحرك خلال دقائق.

وأفرزتني الطائرة إلى الخارج في نيويورك، فوجدت أن طائرتي الأخرى كانت قد أقلعت. عبثاً حاولوا إعادة ترتيب مواعيدي واستعادة حقائبي. فأدركتُ أن الآلة لم تلفظني خارجاً وأنني أسعى جاهداً ضمن آلة أكبر. أشكو للمسؤولين. بعد أن أقف في صفوف طويلة قبل أن أصل إليهم. فأكتشف أنهم هم أيضاً قطعة صغيرة في تلك الآلة الكبرى. لم أجد بينهم من يتحمل أية مسؤولية أو حتى أن يتكلم حول مشكلتي لأنها خارج اختصاصاتهم الضيقة. كل شخص مسؤول وغير مسؤول في الوقت ذاته. لا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً لتصحيح الخطأ.

تراكضتُ في دهاليز النظام الرهيب وحيداً حائراً قلقاً غاضباً. وتمهلتُ مدركاً أن كل ما أستطيع أن أفعل هو أن أنتظر حتى تفرزني الآلة إلى الخارج مشوّهاً في صميم داخلي.

وخلال الانتظار اكتشفتُ فجأة أنني أضعتُ فلوسي فضاع صوابي. فتّشتُ جيوبي باضطراب مرات فلم أجد شيئاً. هل أوقعتها؟ أين؟ هل نُشلت مني دون أن أحس؟

اتصلتُ بميه لكي تستضيفني تلك الليلة فأقبلت ملهوفة وانتشلتني مشوهاً من فك الآلة. حملتني إلى شقتها أشلاء ووضعتني سوية قطعة قطعة. شربنا وتناولنا العشاء وأصغينا لموسيقا هندية فيما تحدثني عن تجاربها ضمن آلة الزواج الذي دخلته منتشية وتتراكض في دهاليزه الآن بحثاً عن مخرج أو مدخل. وأثناء الحديث كنت أستعيد صورتها فتاة مليئة حيوية مرحة ترقص حافية في سهرات عامرة.

وجدتُ نفسي أضحك دون انقطاع عندما خطر لي أن الذي نشلني اتصل بصديقته ودعاها إلى مطعم فخم ثم إلى مرقص ونام معها في فندق من الدرجة الأولى على حسابي.

شاركتُ ميه الخاطرة التي اخترقت ذهني مثل البرق في ليلة مظلمة، فقالت: المهم أنك خرجتَ من بطن الحوت يا يونان الكفروني.

ـ نخرج من حوت لندخل آخر.

ـ من المتشائم أنتَ أم أنا؟

ـ لا أنتِ ولا أنا، النظام نفسه هزيل.

ـ ربما تريد مزيداً من القهوة؟

ـ نصف فنجان، أرجوكِ. قهوتكِ طيبة.

وفي اليوم التالي تمشيتُ في الجادة الخامسة بين «الفيليج» و«السنترل بارك» أراقب الناس وواجهات المحلاتِ في محاولة للتحرر من الاضطراب الذي ولّده النظام في نفسي كما أُحلّ الخيوط التي التفّت حول داخلي.

وفيما أتمشى أبصرتُ فجأة رجلاً أسود يتقدم نحوي، ويقصدني بالذات. حاولتُ أن أتجنّبه ولكنه أشار لي: أنت!

وتوقفت لا أدري ماذا أقول أو أفعل. تقدم وسألني: يهودي؟

قلت: لا.

ـ إيطالي؟

ـ لا.

وابتسم مسلّماً بالعربية: السلام عليكم.

وشعرتُ بانشراح هائل فأدركت أنني مستعد للذهاب إلى المطار. عدت في طائرة مروحية صغيرة حسبت مرات أن العاصفة ستحطّمها، فتناولتُ مفكرتي وكتبتُ فيها: «لا أستغرب أن يحدث لي شيء، بما فيه الموت، بعد ٢٤ ساعة مليئة بالمفاجآت».

ولما خرجت من جوف الطائرة تمنيت لو أن السيدة المجنونة حجزت لي مكاناً على بساط الريح.

□ □ □

المَدِينَةُ المُلوَنة

انتهت العاصفة، وعادت أشعة الشمس تحتضن بشغف أوراق الأشجار الملونة المتموجة المتداخلة وتنعكس عنها فرحة بنفسها والعالم.

ومع أن العاصفة في الداخل لم تهدأ، إلا أن أخي حضر دون توقع واقترح أن نخرج فيما يبقى هو مع أمي المضطربة. وقبلنا اقتراحه دون تردد.

توجّهنا بلا تصميم نتمشى على ضفة نهر «البوتمك» وسط مدينة واشنطن، فتذكرتُ لسبب ما يوم أقلعت بنا الطائرة من بيروت في طريقنا إلى الولايات المتحدة. وفي ومأة خاطفة تراءت لي جبال لبنان كأنها تستعد للقفز إلى البحر، امتدادات زرقة المتوسط تمخره سفن صغيرة، قبرص تسعى في مختلف الاتجاهات صوب اليونان وتركيا وسوريا للتغلب على علاقتها المستوحدة مع الموج، جزر أسطورية ضاع يولسس وقدموس بينها مأخوذين بغناء حوريات البحر الساحرات، جبالُ الألب الصخرية تنزع عنها وشائح الثلج وتتعرى بحضور شبح هنيبعل، أراضي أوروبا الخضراء لوحةٌ تجريدية، غيومٌ بيضاء بلا انقطاع كأنها قطعان خراف ترعى في مروج لاحدود لها فوق المحيط الأطلسي، أميركا غابات كثيفة تخترقها أنهر جبارة.

كانت الطائرة التي تقلّنا حبيبتي وأنا تطارد الشمس التي احتفظت بمسافاتها. استيقظنا قبلها في بيروت، سبقناها أشواطاً، تلحق بنا ببطء، توازينا ساطعة، تسبقنا دون أن تحوّل أنظارها عنّا، وتذهب لتنام قبلنا في

نيويورك التي لاتنام. لوقت طويل بدا لنا أن الشمس لن تغيب (وكان ذلك أطول لقاء لي معها مدى الحياة)، ولكن زحمة الضوء والناس لم تمنعنا، حبيبتي وأنا، من التغازل وسط جموع الركاب المرهقة.

تلك كانت خطوةً جازمة باتجاه مصير آخر. عريس للمرة الأولى ومهاجر. دون تخطيط وحسابات باردة هجرتُ العزوبية والوطن، فاعتراني في ومآت عابرة إحساس لا أدرك سوى أنه مزيج غريب من الغبطة والقلق. تزوّجنا قبل حوالي شهر من تلك الرحلة (وكان شهر العسل كأنما مايزال في بداياته)، وخضنا حياة جديدة. بالنسبة لي، ضاعف السفر إلى أميركا(أو الهجرة على الأصحّ) من هذا الإحساس. في الواقع، لم أحس يوماً أن هجرتي هجرة حقيقية. فانتماءاتي عميقة عميقة ولامجال للاقتلاع. أما حبيبتي فكانت تعود إلى أهلها الذين كانوا قد هاجروا من زمن واتخذوا أميركا بلداً جديداً.

وفيما نخترق كثافات الغيوم البيضاء فوق أميركا، تذكرتُ أنني في طفولتي دخلت فجأة كثافات غيوم سوداء تضيئها بروق وصواعق متكررة. كان قد توفي والدي فجأة في الثلاثينات من عمره دون إرث من أي نوع (سوى بغل كان يكاري عليه وبيت حجري، دون غرف، ترابي السطح)، فاضطرت أمي أن تنزح بنا أنا وأختي وأخي إلى مدينة بيروت بعد أن جاهدت عبثاً في القرية مدة سنة أوأكثر. عملت خبّازة على التنور (تتلقى أجورها أرغفة ساخنة) وحصّادة موسمية في مناطق نائية كان أهل القرية يسمّونها «مشرق». ما زلت أحس بالجوع حين أتذكر أرغفة القمح الساخنة المخبوزة في التنور (خصوصاً أننا بعد موت أبي كنا نضطر أحياناً أن نأكل خبز «الخلط» من قمح وذره وشعير وهو خبز الفقراء). نتقاسمها بعد أن نمعس رأس بصلة ورأس شنكليس نغمره بزيت الزيتون. أحسّ الآن بالجوع (مع أنني تناولت وجبة كبيرة منذ فترة قصيرة) لمجرد تذكر

الشنكليش والبصل والزيت.

ومهما كان، كنا نقدّر حياتنا ونتمتع بها. عدا جمال القرية وطيبة الناس، فقد أفلتنا فعلاً من قبضة الموت الذي قضى على أربعة إخوة وأخوات قبل أن يبلغوا الثانية أو ربما الثالثة، ثم قبض على أبي دون إنذار في وقت كانت أمي تستعيد قواها من مرض عانت منه كثيراً حتى كانت تحسب أنها هي التي ستموت وليس أبي. في الواقع أنه مات بعد أيام قليلة من عودتها من المستشفى في طرابلس. ردّدت ومازالت حتى سقوطها أن أبي افتداها، مات عوضاً عنها لكي لانتيتّم (فيتيم الأب ليس يتيماً) قاصدةً أنّ الأم لن تتزوج بعد وفاة زوجها بل تنذر نفسها كلياً لأطفالها وثم لأطفال أطفالها.

ولكنها في هذه الأيام ترى جانباً آخر لموت أبي عوضاً عنها. تعتبر أنها أخذت بقية عمره وستعيش بالعذاب وقتاً طويلاً. تسعى للموت فيما تراه يسعى بعيداً عنها.

مرت أشهر على سقوطها المريع فتبخّرت الأحلام وملأت الكوابيس الفراغ. الطبيب مازال يقول إنها قد تموت في أية لحظة ولكنها قد تعيش في هذه الحال أسابيع أو أشهر وربما سنوات. أعود أتساءل كم تضرعت لربها «من وقعتي لحفرتي» ولكن لا يبدو أنه يسمعها. ترى الموت رحمةً وتشتاق نفسها للرحيل، أما هو فيصر أن يكون القرار الأخير له. نحن أيضاً نمتلك مصيرها فنقرر متى وماذا تفعل أي شيء. وأصبحنا نحبها في عجزها أكثر مما كنا نحبها في قوتها. ولكن من ناحية أخرى هي أيضاً تمتلك حياتنا إذ تحتاج إلى عناية دائمة. هل يمكن التصالح مع هذا الواقع المرير؟ كيف التعامل مع مزاجاتها المتقلبة بسرعة هائلة بين أقصى الصمت وأقصى الاضطراب؟ أقول لنفسي إن أهم ما يجب أن يتعلّمه الإنسان هو أن يعرف متى وكيف ولماذا يموت. هل أعرف كيف أموت في المستقبل؟

في أي مستقبل أريد أن أموت؟ هل أدرك متى يحين وقت الرحيل بأناقة وكرامة وطمأنينة؟ هل سأتمكن من الوصول إلى قرار قبل أن أجتاز ذلك الخط الفاصل فلا أعود أميز بين الخيال والواقع؟

تتجاوز محنتها بالغناء والصلاة. ربّما هما الجسران الوحيدان اللذان يصلان بين الخيال والواقع في حياتها. وأنا لا أعرف الغناء وأجهل خاصة الصلاة. تغنّي بيتاً من الشعر الشعبي:

لولا الصبر والتشبيه جنّيت   ورافقنا وحوش بالفلا

أفهم أن التشبيه هو الشعر. هو أيضاً جسرها بين الواقع والخيال. ومهما كان ناضلت كل حياتها، ولابد أنها ستستمر في النضال حتى الرمق الأخير. ناضلت في بيروت كما ناضلت في القرية. وعندما وجدت عملاً وملجأ نسكن فيه أرسلت تستدعينا إليها، فنزحنا دون عناء. كنت حينئذ في العاشرة وكانت أختي في الثامنة، وأخي في السادسة أو الخامسة. حمّل عمي جميل بعض أغراضنا على بغله «الشموس» ومشينا وراءه في طرق وعرة ضيقة باتجاه بلدة صافيتا، وكانت برفقتنا أم يوسف، وهي أيضاً مترمّلة تعمل في بيروت. انحدرنا أودية وتسلقنا جبالاً وتلالاً، قرب وعبر قرى ومعالم، كثيراً ما ترددت أسماؤها على مسامعنا. وكلما عبرنا نهراً، أو بالأحرى جدولاً، كنت أتعرى وأغطس في الماء ثم ألبس ثيابي دون أن أجفف جسدي ونتابع السير. استرحنا عند قمم الروابي في ظل أشجار المزارات القديمة، خصوصاً عندما يصبح من الضروري أن ننزع الأشواك من أقدامنا الحافية. نمنا في ظل برج صافيتا وفي صباح اليوم التالي ركبنا بوسطة طرابلس، وكان عدد الدجاج المربوط رزماً رزماً أكثر من عدد الركاب. وقفزتُ فعلاً في مقعدي عندما شاهدت راكباً يصعد البوسطة ومعه جديٌ أصبح (في جبهته بقعة بيضاء) فحسبته للوهلة الأولى جدياً كنت قد ربيته شخصياً ثم بعناه للحام قبل أيام من نزوحنا. ولما أدركتُ

أنه جدي آخر مشابه لأنه لم يعرفني، حزنتُ حزناً شديداً.

وصلنا طرابلس وهبطنا في باب التباني، فعجبت لذلك الزحام العجيب الغريب من العربات والناس والأحصنة والحمير والكلاب والبضائع والحلويات والخضار والفاكهة والنفايات والغبار. أهذه هي المدينة التي كنت أسمع عنها؟

وتنشقتُ بارتياح عندما ركبنا عربة خيل وتوجهنا إلى التلّ فبدت الشوارع تتسع والمحلات تكبر والأشجار تصطف كحراس يستقبلون قائداً كبيراً. وجذبت أنظاري بالدرجة الأولى محلات الحلوى، ولكنني أدركتُ أنني لايجوز أن أشتهيها كما اشتهاها أخي لأننا لم نكن نحمل أية فلوس. ولم أطلب من أم يوسف أن تشتري شيئاً لنا رغم الجوع فأنا أعرف أيضاً أنها لاتقل فقراً عن أمي. إنما، يجب أن تكون قد أدركت ما يجول في فكري، فقد رأيتها تدخل وتشتري قليلاً من الحلاوة.

ومن التل أخذنا بوسطة أكبرَ وأجد وأنظف إلى بيروت. لا أذكر شيئاً هاماً آخر غير التلال الصاعدة من البحر، والأمواج المتكسرة على الصخور مقبلة من مسافات بعيدة، ونفق رأس الشقعة. أذكر جيداً حاجز السنغاليين الذين أوقفوا البوسطة عند مدخل النفق وكانت الشمس قد بدأت تغيب. تلك كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها إنساناً أسود. أنزلونا من البوسطة وطلبوا هوياتنا، الشيء الذي لم أسمع به من قبل. شرحت لهم أم يوسف أننا صغار ولسنا بحاجة إلى هويات، ولكنهم أصروا مهددين أن يعيدونا من حيث أتينا. قلتُ في نفسي أين أنت يا يوسف؟ ليس في البلاد من ينافسك في «قيم الجرن». لو كنتَ معنا هنا لرفعتَ هذا العسكري السنغالي هو وبندقيته إلى أعلى رأسك ورميته من هذا الشير إلى قاع البحر. أستنجد بكَ يا يوسف مع أنكَ ضربتَ يوماً عمي فاضطر أبي أن يلقّنك درساً قاسياً في مطلع شبابك. كأنني أراه في هذه اللحظة يضع

خنجره في زناره العريض ويحمل دبوسه ويمضي إلى الساحة. لايستطيع أن يرفع الجرن مثلك ولكنه إنسان لايهاب وضربة دبوسه لاتُرد. أنت تعرف أن الزعل لايستمر طويلاً في الضيعة. يتدخل الناس وتتم المصالحة. لذلك لم يكن عجيباً أن تتحسن العلاقات. لو كنت هنا الآن! هل كان يجرؤ هذا العسكري السنغالي أن يسألك عن هويتك؟ وأتساءل الآن (طبعاً لم أكن أملك الوعي لأسأل في ذلك الحين) كيف يتمكن الأقوياء من استعمال الضعفاء ضد بعضهم البعض. مازالت قوى الاستعمار حتى الآن تستعمل شعوب العالم الثالث ضد بعضها البعض. لاشك أنك تسمع كيف تستعمل حكومة جنوب أفريقيا العنصرية السود ضد بعضهم البعض؟ وكيف تتدخل أميركا وإسرائيل لإطالة الحرب بين العراق وإيران. وهذه الحرب اللبنانية لماذا تطول؟

لست أدري إذا كنتَ تفكر بهذه الأمور. المهم، أخبرك أنه بعد إلحاح والدتك، تجاهل السنغالي الأمر وسمح لنا أن نتابع السفر إلى بيروت التي أصبحت قريتي الثانية. وصلنا إليها في وقت متأخر من المساء في مطلع خريف ١٩٤٢، وقد بدأ ذاك الصراع الخفي بين العتمة والمصابيح الخافتة التي طُليت بلون أزرق داكن خوفاً من الغارات الجوية.

أنزلونا من البوسطة في ساحة البرج، أو بالأحرى في زقاق يتفرع منه إلى الشرق. سمعتُ همسات أننا في وسط السوق، ولم أفهم تماماً ما يعني ذلك ولكنني استغربت مشهد النساء الفاتحات أفخاذهن دون حياء.

وكان علينا أن نتوجّه إلى شارع الحمراء في رأس بيروت. مشينا وراء أم يوسف نحو ما أسمته محطة الترام، وكانت أختي تلبس قبقاباً خشبياً أحدث أصواتاً مزعجة في تلك الشوارع البلاطية الصامتة المعتمة. قلت لها، مازحاً، أن تنزع قبقابها كي لاتقلق المدينة فيخرج علينا الحرس ويأخذوننا إلى السجن. استجابت بسرعة، إذ نزعت القبقاب ووضعته في رزمة صغيرة

كانت تحملها على رأسها. لا نزال حتى الآن نذكّرها بذلك ونضحك معاً. وتفاجأنا بقدوم الترام فكان غير ما توقعته. ازداد إحساسنا بالرهبة والدهشة. ولكن كان علينا أن نندفع كما اندفع الآخرون وتسلقناه دون تردد. دخلنا جوفه كما دخل يونان بطن الحوت، فإذا للحوت هذا نوافذ. تأملت زجاجها المطلي بلون أزرق داكن فحسبت أن المدينة ملونة. ولم تتغير هذه الصورة الأولى في ذهني مع أنني تجولتُ في المدينة صباح اليوم التالي وأدركت أنها بلا لون. ترى لماذا ماتزال تلك الصورة الأولى عالقة في مخيلتي حتى الآن؟

□ □ □

الاحتِراق

أنظر مأخوذاً إلى عاملة المصعد السوداء دون أن أصغي لشروحها حول نصب جورج واشنطن التذكاري. ردّدت بآلية مدى ارتفاع النصب (الأمر الذي لم أسجله لأنه لايهمني) وكونه أكبر نصب حجري في العالم، فخطر لي أن أقاطعها وأخبرها بأنني راقبته من تلة الكونغرس فبدا لي «المول» مثل رجل ضخم (كتلك المخلوقات العجيبة في حكايات ألف ليلة وليلة) تمدّد على ظهره ورفع عضوه متوتراً في الهواء. طبعاً كبتُّ تلك الخاطرة الشاذة.

وجدت عاملة المصعد السوداء جميلة كبدايات الصباح في شتاء الكفرون الماطر. لهذا لم أتمكن من أن أنزع عينيّ عنها. تحاول أن تتجاهل نظراتي لبرهة، ولكنها استدارت فجأة وحدّقت بي معبّرة بوضوح كلّي عن استغرابها وتبرمها فحوّلتُ نظراتي عنها بسرعة تجنباً للإحراج. حوّلتها إلى فتى أشقر جلس في زاوية المصعد يعلك بسرعة، مفصولاً عن العالم.

وسألتني حبيبتي هامسة: تفكّر أنه مستقبل أميركا، أليس كذلك؟

ـ مللتُ مثل هذه التعليقات.

ـ نشكر الله.

ـ ولكنني أراه سنبلة هرّت حبوبها فوق مياه ملوثة.

ـ يستحيل أن تملّ.

ـ أرى رؤى وأسمع نبوءات.

ولما استخفت حبيبتي بكلماتي دون أن تهتم بالتعليق عليها حتى بتلويحة من يدها، عدتُ أتأمل السوداء الجميلة كصباح شتائي في ضيعتنا. تأملتُها ملياً ومأخوذاً كما كنت أتأمل الجداول إلى أن صوّبت عليّ كفوهتي بندقية. ارتعدتُ بخجل ظاهر. أتساءل لماذا غضضتُ النظر وانسحبتُ إلى عالمي الداخلي بدل أن أواجهها مبتسماً وأقول شيئاً طريفاً. لا أحمل لها غير الإعجاب، فلماذا الجبن.

وأسمع حبيبتي تسألني: كم قالت ارتفاع النصب؟

- طول ميكادو!

تعرف حبيبتي أنني أشير إلى رجل طويل رفيع في الكفرون أسموه أو لقبوه بالميكادو في زمن ازدهرت فيه فكرة الشرق.

وفرحتُ أن المصعد توقف قبل أن يتاح لحبيبتي أن تعلّق، فلملمتُ نفسي وخرجنا إلى النوافذ نتأمل واشنطن تتعرى أمامنا بإغراء ودون كبت: نهر «البوتمك» يتلوى مثل راقصة شرقية، يتفرع مثل الشرايين، يحتضن جزراً صغيرة تكتسي غابات كثيفة، يفصل واشنطن المدينة - الرجل عن فرجينيا الولاية - المرأة التي تعلن أنها للعشاق دون تمييز ظاهر، ويستدعي في ذهني جداول الكفرون التي نسميها أنهراً.

أقول لنفسي: آه منك يا توفيق.

يجب أن أكون قد تفوهت بذلك الاسم بصوت مسموع، فقد سألتني حبيبتي: من هو توفيق؟ ضحكتُ وذكّرتُها بحدث في الماضي البعيد: في صغري كنتُ أهرب من المدرسة والحق رعاة الماعز. لحقتهم مرة إلى «سهل الملوّعة» الذي يشرف على وادي الكفرون. جلستُ على صخرة مرتفعة قرب «عش الشوحة» وسرحتُ بعيداً وعميقاً في تأملاتي. لاحقت الجداول التي نسميها أنهراً إلى ينابيعها، وتسللتُ مع مياهها إلى جذور

الأشجار، فبدأت أنمو مثل صفصافة. فرّخت في جلدي أغصانٌ وأوراقٌ خضراء وأزهارٌ بريّة. تحوّلتُ إلى دلبة ودالية وسنديانة وتينة في صخرة. وفجأة أعادتني إلى الواقع صفعة قوية على رقبتي. التفت فإذا هو توفيق يرغي بغضب محموم: عنزاتك رعت نصبات الزيتون يا كرّ.

واعتذر توفيق عندما أدرك خطأه، فالماعز لم تكن لي، ولم أكن مسؤولاً عنها. زارنا في المساء يحمل عنباً وتيناً وأكوازاً خضراً من الذرة. في كل مرة أزور الكفرون أفكر أن أزورك في الملوعة يا توفيق. شخت لاشك. كم أتمنى أن أتعرف إلى عائلتك.

ننتقل إلى نافذة أخرى وننظر إلى مبنى لنكلن التذكاري. أراه يجلس إلى الأبد متأملاً بصمت التاريخ الذي أفلت من قبضته واتخذ أشكالاً لم يكن يحلم بها. يبدو لنكلن حذراً، كأنما يلصق ظهره إلى الحائط خوف أن يطلق عليه «بوث» رصاصة أخرى. لايلتفت إلى «جنرال لي» الذي يشرف عليه من رأس تلة على الضفة الأخرى. يراقب الوفود تتسلق الدرجات العديدة فتصل إليه متعبة. تقرأ كلماته دون إمعان، وكأن لاعلاقة لها بحياتهم الحاضرة. اسأله هل كان يخدع نفسه أم الآخرين، عندما تحدث عن حكومات من الشعب وبالشعب وللشعب، وأتحداه أن يعترف أن هناك طبقات حاكمة وطبقات محكومة. يستخف بالتحدي فأتهمه بأنه يخاف أن يُتهم بالماركسية.

يتضايق مني ومن تلك الوفود المزعجة. ولكنه ينسحب إلى عالمه الداخلي مستخفاً ويلتجئ إلى الصمت. أراه يتساءل لماذا أقاموا له هذه البركة ـ المرآة. هل أرادواأن يوحوا له بأن يتأمل نفسه ويعيد النظر باستمرار؟ كلماته محفورة على الصخر ولايمكنه أن يعيد صياغتها. لماذا أقاموا وزارة الخارجية قربه؟ الأمر يمكن أن يكون أكثر إزعاجاً لو أقاموا له نصباً تذكارياً قرب البيت الأبيض، فيضطر أن يراقب خلفاءه ينامون في

فراشه ويرددون كلماته خارج محتواها، ومجردة من مدلولاتها. قُلتَ إنه لامهرب من التاريخ إذ يسجل الطريق الذي نسلكه. أخبرك أن خلفاءك سلكوا غير الطريق الذي أردت.

ننتقل إلى نافذة أخرى: وأنت يا جفرسون أتّهمك بالإصرار على مُثلٍ لم تعد تفعل في التاريخ. لو تراقب بدقة الكونغرس من موقعك الاستراتيجي لاستنتجتَ ذلك بسهولة فائقة. لا تؤاخذني إذا سألتك سؤالاً محركاً. هل كنتَ تملك عبيداً حين تكلمت عن المساواة كحق طبيعي؟ ترى استوعبتَ التناقض وتجاهلته، أم أن مفهومك للإنسان لم يكن رحباً وواسعاً كفاية ليشمل السود والهنود الحمر وغيرهم ممن يقعون خارج الدائرة؟ هل يتساوى الناس؟ جميع الناس؟ ماذا كان موقفك ضمنياً من العبودية؟ هل تستمد الحكومات قوتها من إرادة المحكومين؟ أي محكومين؟ هل يحق للشعب أن يلغي الحكومات؟ هل يحق له أن يلغي الأنظمة؟ وفي الوقت الحاضر، هل يحق لمجتمعات العالم الثالث أن تصنع مستقبلها؟ ما رأيك بالمجتمع الأميركي في الوقت الحاضر؟ هل أنت جسر بين أوروبا وأميركا وبين القرن الثامن عشر والتاسع عشر؟ هل لديك أية أهمية في الوقت الحاضر؟

لاتؤاخذني. أعرف أن هذه الأسئلة محرّمة، ولكنها تطاردني كظلي. مسكون بها. لا أحاول إحراجك أو إظهار تناقضاتك. ربما تكون أكثر تسامحاً من حَمَلةِ تراثك. انظر كيف يتربع الكونغرس في آخر «المول» مثل سلطان تركي عتيق يتضخم مع مرور الزمن، وقد جلست بحضوره المتاحف مثل جواري تعرض جواهرها الطبيعية والمكتسبة. وتحت القبة ـ اللفة الشامخة، عششت دنانير برية، تئز دون انقطاع معتبرة أزيزها نقاشاً. هل ترى كم أرى أن الأزيز ـ النقاش اقتراعٌ على ثواب العالم الثالث المصلوب مؤبداً دون دفن، خوف أن ينهض ويزلزل أسس الأنظمة؟ أشك

بذلك. دون إحراج أيضاً، هل ترى نصب جورج واشنطن التذكاري كما أراه، عضواً يرتفع متوتراً في الهواء؟

ونطل من نافذة أخرى على الشارع السادس عشر يفصل، بدءاً من البيت الأبيض، بين السود والبيض. أراهما عالمين لايلتقيان إلاّ في الخطابات السياسية. كيف يلتقي الجوع بالتخمة؟ كيف يلتقي السيد بالعبد؟ أو الضعيف بالقوي؟ أو المسيطر بالمُسيطَر عليه؟ أو حضارة الفقر بحضارة الغنى؟

ويتمدد في الأفق البنتاغن كسولاً مترهلاً محاطاً بمساحات شاسعة من مواقف السيارات الملونة. آه، يا نورمن موريسون مَن مِنَ الأمريكيين يذكرك الآن؟ هل كنتَ مجنوناً كي تحرق نفسك أمام كاتدرائية الحرب وتواً تحت نافذة وزير الدفاع احتجاجاً ضد حرب أمريكا في فيتنام؟ ارتفع لهبُ جسدكَ إثني عشر قدماً في الهواء ارتفاع أصوات المسحوقين. لماذا أردت أن تحرق طفلتك معك؟ هل هذه هي طريقتك بالاحتفال بعيد ميلادها الأول؟ لِمَن أردتَ أن تقدّمها قرباناً؟ الآلهة ماتوا منذ زمن سحيق. هل هناك من يستحق القرابين في هذه الأيام؟ لقد وهبتَ ابنتك الحياة مرة أخرى وبرهة غيّرت رأيكَ ورميتها خارج النار لتحترق وحدك. حسناً فعلتَ! مئات القصائد كُتبت لها. هل يقترن الشعر باللهب؟ وتستمر الحرب سنوات بعد احتراقك المذهل. ما هو عدد الثواني التي أحسستَ فيها باحتراقك؟ ما هي الآلام التي عشتها في برهة واحدة من عمرك القصير؟ أتباعُ الذي عُلّق على خشبة يعتبرون أنه من الجنون أن يضحّي الإنسان بنفسه من أجل قضية كبرى. اسمكَ يملأ سماء فييتنام. هناك يمجدونك بطلاً وشهيداً. وهل يعقل أن أميركا لاتعرف اسمك؟ عرفت أم لم تعرف، ليس موتك عبثاً. ستبقى خارج وعيها وبالرغم منه. ما أقسى أن تظل الشهادة ضرورية. إلى متى تظل الشهادة ضرورية؟ لمن نقدّم أنفسنا؟

لماذا؟ متى؟ هل من يستحق احتراقنا الأبدي؟ أوافق ياريتشارد فاغنر أن الآلهة وممثليهم على الأرض في هذه الأيام (وربما في مختلف العصور) خطاة وأن الإنسان هو الذي سينقذهم.

وتمدُّ حبيبتي حديثاً مع سائحة مضطربة، فيماأنا مأخوذ بأسئلتي. أرادت المرأة أن تتحدث عن نفسها، فذكرت أنها ولدت ونشأت في «نوكسفيل، تنس». وأحبت جبال «السموكي»، ولكنها اضطرت أن تنتقل إلى نيويورك، فعاشت مدة طويلة وحيدة مع كلبها، وسط زحام الناس. وعندما ظهر سفاح راح يجول شوارع المدينة بحثاً عن ضحاياه من النساء الجميلات قررت أن ترحل إلى أوروبا، ولكنها لم تطل غيابها، فقد ظهر هناك سفاح من نوع آخر. وشعرت حقاً بارتياح لدى عودتها إلى أرض الوطن، غير أنها لم تتذكر اسماً واحداً يمكن أن تتصل به وتشاركه شعورها بالارتياح. ولما تعرضت للاغتصاب وسمع جيرانها صراخها فلم ينجدوها أو يهتموا بالاتصال بالشرطة، عادت جنوباً باتجاه جداول وجبال «السموكي»، قبل أن يغزوها سواح الشمال.

□□□

مَنَاخَات الحُزن

لو أتيح لحبيبتي أن تتكلم، ربما كانت تخبر تلك السائحة عن الحياة الرتيبة التي نعيشها، ولكنها كانت ستؤكد أنها لاتعاني من الوحدة مطلقاً رغم الرحيل الدائم. منذ الطفولة رحلت مع أهلها من قرية عيثا الفخار في البقاع إلى بيروت، وسكنوا شقة كانت تطل على جبل صنين. كانت العائلة كبيرة، والأصدقاء عديدين. وفي صميم العلاقات والكفاح، كانت الأم سيدة قديرة طموحة تريد لأولادها مستقبلاً زاهراً. أبت أن يظل زوجها سائق سيارة، خصوصاً بعد أن تعرض لحادث ترك أثراً دائماً في رأسه، فشجعته أن يهاجر إلى أميركا. التحق بأهله وإخوته في «توليدو، أوهايو» وعاش هناك سبع سنوات قبل أن يتمكن من الحصول على الجنسية ويستدعي عائلته. عمل دهاناً وحارساً، وحنَّ كثيراً إلى تلك الأيام التي كان يسوق فيها سيارته باعتزاز بين عيثا وزحلة ودمشق وبيروت، ويأخذ عائلته في نهايات الأسبوع إلى وادي العرايش ونبع الخريزات وبعلبك والهامة وبلودان وصيدنايا. في البلاد كان يشعر أنه سلطان نفسه، وأصبح في أميركا يشعر أنه نملة تجرجر حبة قمح كبيرة (وربما فارغة) وتخاف وطء الأقدام. ولكنه أدرك تماماً أن جميع أنهر العالم تصبّ في محيط أميركا، فاطمأن وحمد ربه لهذه النعمة الجديدة.

استقرت العائلة في ديترويت، حيث سكن أخوالها التجار. كان أحدهم غنياً، بخيلاً على نفسه وعلى الآخرين، وكان الآخر هرماً أعزب متديناً متوسط الحال، وكان أصغرهم قد توفي بعد أن رفضت عائلته أن

تدخله المستشفى، بسبب معتقدات دينية راسخة. كافحت العائلة كفاحاً مريراً قبل أن تتمكن من العوم فوق سطح الفقر. تركت حبيبتي دون أن تكمل دراستها وعملت في مخزن لبيع الثياب النسائية، ثم محاسبة في مؤسسة للضمان الصحي، وأكمل الأخ الأكبر دراسته وتخرج مهندساً، وأحب الأخ الأصغر العمل إنما أحب البنات أكثر. ولما رجعت حبيبتي إلى البلاد وتزوجنا، رجع الأخ الأكبر وتزوج هو أيضاً فتاة جميلة، كانت قد نزحت مع أهلها من قرية دير ميماس في جنوب لبنان. وعجّز الأخ الأصغر أهله، فقد غرق في حب فتاة أميركية كاثوليكية أصرت، أو بالأحرى أصرّ أهلها، أن يغيّر دينه ويتزوج في كنيستها. ولما رفض حملها أهلها بعيداً إلى الشمال وهي تحمل جرحاً ربما لن يراه أبداً.

حينئذ اجتمعت العائلة وقرّرت أن منصور يجب أن يعود إلى البلاد مع أمه للبحث عن عروس. في الاجتماع قالت الأم: «أريد أن آخذ منصور إلى البلاد وأزوّجه». واعترض الأب أن الأحوال المادية لاتسمح، واقترحت حبيبتي أن يذهب وحده ويختار الفتاة التي يريد، وقال الأخ الأكبر إنه من الأفضل أن يتخرج ويجد عملاً قبل أن يتزوج.

وعاد منصور بصحبة أمه إلى البلاد وأخذ يبحث عن عروس، فيما يفكر بحبيبته الأمريكية. أرادها شبيهة بحبيبته، وأرادتها الأم جميلة وطويلة وبيضاء (لأن منصور قصير وأسمر) وبنت عائلة معروفة، ومتخرجة من الجامعة (كي تستطيع أن تعمل فيما يكمل العريس دراسته). كثرت الاقتراحات من مختلف الأقارب والمعارف، فتوالت الزيارات والضيافات اليومية. وفي كل زيارة كان عليهما أن يتناولا المشروب والقهوة وأحياناً غداء أو عشاء دسماً، فاضطربت معدة منصور أكثر مما اضطرب قلبه. بعد محاولات فاشلة عادا دون عروس ليجد نفسه في فراغ قاتل ويفكر بصديقته التي رحلت شمالاً. في هذا الوقت ندم أنه لم يتزوج سعاد،

وتذكر رحلتهما في السيارة الرمادية بين البحر والأرز وصيدا وزحلة وبعلبك. في الجبال الخضراء كان يشعر أنه محمول على جناحي نسر يحوّم فوق أودية عميقة كجروح قلبه، وفي البقاع كان يشمّ رائحة البخور تتصاعد من هياكل قديمة، وعلى الساحل بسط وجهه في وجهه الشمس وامتلأ صدره بالريح والرذاذ. تذكر نقاشهما حول أميركا فيما كان أهلها يدرسون أمه أكثر مما كانوا يدرسونه هو. أتاح له ذلك بعض الحرية في علاقته مع سعاد، وأوضح لها أنه ليس من النوع الذي يتزوج دون حب أو يتوقع أن تكون عروسه جزيرة عذراء غنية بالمطر والأشجار والشمس، ولم يكتشفها أي إنسان قبله أو بعده. وتغير لونها لسبب ما لم يتأكد ما هو. ربما ظنت أنه يستدرجها.

ندم أنه لم يتزوج، ولكنه من ناحية أخرى يشعر بالارتياح لأنه لم يتسرع ويتزوج لمجرد أنه سافر ليتزوج. أدرك أن هناك خطأ ما، فقد وجد نفسه في جو غير طبيعي. يبحث عن عروس كما يبحث عن شقة يستأجرها. ليس هذا مايريده لنفسه. أراد أن يكون زواجه عفوياً. أن يقع في الحب أولاً، لا أن يقع في الزواج فجأة ودون مقدمات ثم يحاول أن يخلق الحب خلقاً. رغم ذلك وافق أن تطلب أمه يدها من أهلها الذين وافقوا مشترطين أن يخطفها فيجنبهم إقامة عرس صاخب. ويضحك حين يتذكر لقاءهما في كرم العنب بحضور أمه وجدتها للتفاوض على تفاصيل عملية الخطيفة. وما إن وصل التفاوض إلى نقطة صعبة حتى أدرك خطورة ما يفعل فقرر جازماً أن ينسحب.

ووقع في الحب بعد أن عاد وتعرف إلى فتاة أميركية وتزوجها رغم عدم اقتناع أهله تماماً. ولكنه ما كاد يتزوج حتى قبلوا بالأمر الواقع. أصبحت أحوال العائلة جيدة وحرصت أن تتجنب أي تصرف يهدم الإنجازات العديدة التي حققوها خلال وقت قصير. أصبحت العائلة

عائلات تملك بيوتاً وسيارات وموارد سخية. كافحوا كفاحاً مريراً، وفجأة وجدوا أنفسهم يدفعون ثمناً في عز الانتشاء.

أخذ أخوها الأكبر أباه وخالته وزوجته وابنته الصغيرة في رحلة إلى بوسطن، مروراً بشلالات «نيغارا». التقطوا صوراً للمياه المتدفقة تتساقط برهبة إلى قلب العالم. وفي اليوم التالي تابعوا رحلتهم إلى بوسطن. لم يصلوا. في امتدادات طريق «نيويورك ثرو» انفجرت عجلة السيارة، فحادت عن الطريق بسرعة جنونية واصطدمت بحائط جسر، وهمدت فجأة. قُتلَ الأخ وزوجته وخالته تواً. مات الوالد في الطريق إلى المستشفى وانعطبت الابنة الصغيرة مؤبداً ولاتزال في مؤسسة تعنى بالمعاقين، بعد أن عنيت بها جدتها سنوات. شرح لهم الطبيب عند حصول الحادث أن دماغ الفتاة أصبح مثل بيضة انكسرت واختلط صفارها ببياضها.

وكان بين أقسى جوانب المأساة الطريقة التي بلّغت بها الشرطة الأم الخبر. جاؤوا إلى البيت في ديترويت وكانت وحدها هي وطفل ابنها الذي أصبح يتيم الأب والأم قبل أن يبلغ خمسة عشر شهراً من عمره. أبلغوها الخبر باقتضاب ودون مقدمات، وتركوا بعد أن سألوها بشكل عابر إذا كانت تريد شيئاً. دون نحيب اتصلت بنا في آن اربور وأخبرتنا بالحادث إنما ذكرت بأن الجميع في المستشفى. غرقنا في هاجس الموت ونحن نقود السيارة بسرعة هائلة إلى بيت العائلة. هناك واجهنا الموت حاداً مثل نصل السيف.

وكان لابد من بداية جديدة، هل مَن يستطيع ان يضع الحزن وراءه وينطلق متحرراً من هموم الماضي؟ الأم لاتتمكن. تعيش في سحابة داكنة ضمن بيتها. تقطن الغيمة الداكنة قلبها وعينيها وجبهتها وثيابها. منصور لايستطيع أيضاً. فجأة انقطعت كل العلاقات فحمل وحيداً مسؤوليات تتراكم باستمرار، وتواجهه في البيت متفرسة به وعند منعطفات الطرق

وفي الليل بعد أن تنام عروسه التي لم تعرف كيف تتعامل مع الوضع الجديد. أرادت عريسها أن ينسى ويستأنف معها حياتهما الماضية كأن شيئاً لم يحدث. تشرح له أن الموت هو نهاية الذين ماتوا وليس الذين مايزالون أحياء. وأرادته أن يتابع معها الذهاب إلى البارات والمسارح والمطاعم. لايستطيع. كيف يستطيع؟ مع هذا حاول مرة. بكى في المطعم وسط زحمة الناس وهرب. اضطرت أن تترك عشاءها وتلتحق به. نَمَت الأزمة بعد سنة وتعمّقت رغم أنه أصبح لهما أربعة أولاد. وأخيراً أعلنت فشل العلاقة، فتركت تبحث وحيدة عن حياة جديدة لم تجدها حتى الآن. ولايزال هو يحمل مسؤوليات بحجم الماضي السحيق.

ووحّد الموت بيني وبين حبيبتي. وُلدت الوحدة بالفرح وتعمّقت بالحزن. خبرناها معاً وفي آنٍ. تعمّقنا في الحاضر، وسافرنا دون خوف في متاهات الماضي والمستقبل. ننطلق في مختلف الاتجاهات. نتأمّل العالم من أسفل ومن علو وفي وسط الازدحام، وداخل بطن الحوت أو في البحار والأجواء الشاسعة.

هكذا كانت البداية منذ مطلع الفترة وهكذا نتوقع النهاية. كانت حبيبتي قد عادت إلى بيروت فالتقينا بعد فراق ست سنوات. تبادلنا أثناءها بعض الرسائل التي تحدَّثنا فيها عن أمور عدة غير الأمر الأساسي الذي كنا نلمح إليه تلميحاً غامضاً، والذي طالما حاولنا أن نغلّفه بغيوم كثيفة، كتلك التي اخترقناها فوق المحيط.

في مطلع الفتوة دعاني صديقي فارس لإمضاء أسبوع معه في عيثا الفخار هرباً من حر بيروت، فلم أتردد. انطلقنا مثل عصفور فَلَتَ من قفص. طرنا فوق الجبال، حلّقنا فوق سطح البقاع، انعطفنا عن الطريق المؤدية إلى بوابة دمشق العريقة مثل الهموم الإنسانية، تابعنا طريقاً ضيقة متعرجة في السفوح الغربية للجبال الشرقية، قطفنا عنباً عند بيادر العدس،

ودخلنا وادياً تحيط به التلال العارية من جهات ثلاث. عيثا الفخار ليست الكفرون ولكن لها جمالها الخاص (أقول هذا لتسمع حبيبتي). أجمل ما فيها الهواء الجاف البارد والسماء الصافية والتمشي بين الكروم. ولأنني «كفروني» سألت عن الينابيع، فقال فارس إنَّ هناك عيناً تقصدها الصبايا. تمشينا إليها عند الغروب فوجدنا سرباً رائعاً من الفتيات ينتظرن دورهن لملء الجرار. حوّمنا حولهن. مَن النحلة ومَن الزهرة؟ من يبدأ الإغراء؟ ولماذا وكيف؟

ضاعت الحدود. لماذا التساؤل ما دام للعبة مثل هذا التوهج الداخلي المتدفق؟ آه يا حمامات ألف ليلة وليلة. كيف تحوّلت الفتيات الأسيرات إلى حمامات طارت دون توقف إلى بركة مياه صافية؟ كيف عادت الحمامات فتيات جميلات تعرينَ وسبحن مستخفات بالعالم؟ وهل أنتَ على هذا القدر من الحرمان يا قمر الزمان كي تراقبهن من وراء صخرة وراء شجرة وراء أكمة فتقرر أن تسرق ثياب إحداهن «وقبوعة الإخفاء» التي بها تتحول صاحبتها إلى حمامة تطير حرة وراء حدود الأسر؟ لماذا تأخذها أسيرة إلى أمك وتتركها في غرفة دون نوافذ؟ أعرف أنها ستبحث في ظلمة الدهاليز عن عشيق. ربما تقبض عليها، وربما ترجمها بالحجارة. لن تزداد حياتك ثراء بل فقراً أيها الطاغية الصغير.

وأطلت الفتاة التي أصبحت حبيبتي ورفيقة عمري وشريكتي في مغامرة الفرح والحزن. كانت مثل عنقود من العنب تدلى من شجرة عالية فوق نبع الشيخ حسن. لم أرد أن أقطف العنب. متعة هائلة أن أتأمل العنقود. لا أسر، لاسرقة، لا غرف دون نوافذ. الفضاء مَسْكَنُ الحلم. تملأ الجرة ماء، أمتلئ بها، فالتفتُّ إلى فارس وقلت: هل في عيثا مثل هذا الجمال؟

ـ أعجبتك؟

ـ بهرتني.

ـ نسهر عندهم الليلة. إخوتها أصدقائي.

ـ أصدقاؤك أصدقائي.

واتسع العالم ذلك المساء حتى أصبح بلا أسوار وحدود. سهرنا (مجموعة من الصبايا والشباب) على السطح، فتذكرت مواسم سلق القمح وجرش البرغل وإعداد الكشك ونصب المراجيح وغناء «الشومالك يا الشومالي» في الكفرون، وخرجنا تحت ضوء القمر إلى الكروم وبيادر المصاول. غنّت التي ستصبح حبيبتي «برهوم يا بو الجدايل» وأسمعتهم شعراً غزلياً، ودبكنا على دربكة فارس وغناء ليلى.

وتكررت اللقاءات مع التي ستصبح حبيبتي في عيثا ثم في بيروت. تجادلنا في السياسية والدين، فاعتبرتني متطرفاً واتهمتها بالوعي المزيف. استغربتُ فيما بعد (ويجب أن تكون قد استغربت هي أيضاً) الجرأة (أو ربما الوقاحة) التي تكلمتُ بها. بأية سلطة تكلمتُ معها هكذا؟ ترى بدأت أحبّها؟ المهم أن علاقتنا توثّقت، دونما حاجة إلى مكاشفة وتأكيد. وأثناء حديث ودّي خاص سمعتُ نفسي أقول دون أن أذكر ما الذي قادنا إلى ذلك: لو يتحول العالم إلى نهر.

لم أتوقع جواباً إيجابياً فاستغربت أنها قالت: ونتحول نحن إلى سمك.

ـ عندئذ نعيش داخل التيارات.

ـ وننزلق بحرية في مختلف الاتجاهات.

ـ هل تتغازل الأسماك.

ـ بالمناسبة لا أعرف السباحة. هل تعلّمني السباحة؟

ـ ليس من عادتي ألا أستغل الفرص الجميلة.

وهاجرت حبيبتي مع أهلها إلى الولايات المتحدة دون أن تسنح

الفرصة، وقبل أن نطوّر لغتنا الرمزية ونجيب عن تساؤلنا فيما إذا كانت الأسماك تتغازل. تبادلنا بعض الرسائل دون مكاشفة (سوى تلميحات هنا وهناك) ودون ارتباط بوعود. ولكنها عادت بعد سنوات فأُصبتُ بالفرح والذهول. سهرنا رأس السنة في مقهى نصر على الروشة، ودعوت صديقي أسعد فقد رتّبتُ له موعداً مع صديقة لايزال يسألني حتى الآن لماذا أردتُ معاقبته بتلك القسوة. جرى قتال بين السكارى فحضرت الشرطة. اغتنم الكثيرون من الزبائن الفرصة فهربوا دون أن يدفعوا. لم نترك قبل أن ندفع، فأعدتُ النظر باعتقادي أنه ليس من عادتي ألاّ أستغل الفرص، خصوصاً وأنني لا أحب طبقة التجار، وكان بإمكاني أن أجد مسوغات مقنعة. ربما أردت أن أترك في ذهنها انطباعاً إيجابياً.

بعودة حبيبتي بعد سنوات تحوّل العالم إلى نهر وتحوّلنا نحن إلى أسماك ملونة. سبحنا بحرية في مختلف الاتجاهات والأعماق إلى أن التقطتنا فجأة شبكة وأخرجتنا من الماء، فكافحنا لفترة صغيرة قبل أن تلقينا في حوض الزواج. ربما دخلنا الشبكة تلقائياً. ومهما كان، فلا نزال نرى العالم نهراً. وما نزال نسبح بحرية في مختلف الاتجاهات إنما ضمن الحوض.

هاجرنا إلى الولايات المتحدة، وعشنا في آن أربور، حيث تابعتُ دراستي في جامعة ميشغن. اشتركنا في نشاطات حركة الحقوق المدنية للسود وحركة الاحتجاج ضد حرب أميركا في فيتنام. لن أنسى ذلك الصف الطويل من الطلاب الأميركيين أمام المكتبة ينتظرون دورهم للتبرع بالدم لإرساله إلى الثوار الفيتناميين عن طريق الجزائر. ولن أنسى أن عدداً من زملائي في الصف اشتركوا في تأسيس حركة طلابية من أجل مجتمع ديمقراطي. أين أنت الآن يا توم هيدن؟ تزوجت النجمة السينمائية جين فوندا فكافحتَ منذ ذلك الوقت أن تصبح نجماً سياسياً. وقُتل مارتن لوثر كينغ فأصابت إحدى الرصاصات فكرة اللاعنف في الصميم، ودُفنت،

فنمَت على قبرها فكرة القوة السوداء. ثم أُغتيلت بدورها. ما العمل إذا فشل اللاعنف والعنف؟ الاستسلام؟ لايمكن. هل يشكل قوس القزح حلاً؟ مهما كان، الكفاح سيستمر.

يوم عدت إلى الوطن كتبت، «آه، ما أروع العودة والحوار وما أروع أن تتشابك الأيدي وتتلاصق الأكتاف وترتفع الأصوات بالغناء»:

«سننتصر

سننتصر

سننتصر يوماً ما

آه، عميقاً في قرارات نفسي أؤمن

أننا سننتصر يوماً ما»

ويوم اغتيل مارتن لوثر كينغ الذي قهر الخوف من الموت كتبتُ: «الذين تجاوزوا العنف (سقراط، المسيح، غاندي، كنغ) لحق بهم العنف وصرعهم» ولكن قائداً آخر سينبت من جرحه ويتحدى، «إلى الجحيم بحياتي... أعرف أنني سأموت».

في أمريكا كنت أغني العتابا في الطريق إلى امتحاناتي، (أحياناً بصوت مسموع). كنت أغني (خاصة):

جِمال محمّلي وجراس بتعن   أيام المضت علبال بتعن
حَمَلت بضاعتي ونزلت أبيعن   غريب وما حدا مني اشترى

وأمارس الوطن مع الآخرين بأكل الكبة والتبولة والحمص والفول وبرقص الدبكة. تجوّلنا كثيراً على ضفاف نهر «هيورن» في مختلف المواسم. مشينا فوقه عندما كان يتجلد في الشتاء وقطفنا زهوره وأوراق العنب في الربيع. وخضناه في الصيف، وراقبنا طيوره ترحل جنوباً في الخريف. اصطدنا مع راشد الأسماك في البحيرة الفضية، وفي بحيرة

«الرجل الهرم»، كما أسميناها في ذلك الحين لأن رجلاً عجوزاً كان يسكن على شاطئها.

وفي الأزمات كنا نحاول أن نفهم الناس القضية الفلسطينية، إنما دون جدوى. أيتها الأبواب الموصدة في المنازل الديمقراطية، هل من الجهل أن نقرع حتى حين لانتوقع جواباً. لماذا نقرع؟ هل الألغام أجدى؟ حاولنا الدبكة لنعرّف بتقاليدنا الشعبية عند سفح إبهامك يا «ميشغن» إنما أيضاً دون جدوى، وتفرقنا في متاهات العالم. انتهى زمن الاستقرار في بيروت يا خالد وشفيقه. أصبحت حياتنا معلّقة في سديم بين الضّباب والوهج والثّلج. ومحمد، وحيد أمّه، بقي في بيروت ولكنه طلّق مرتين وتزوج للمرة الثالثة ومايزال مستقبله أمامه (إذا ظلّ حياً).

□□□

المَسِيحُ يدبك في ضَوءِ القَمَر ويَسبَحُ عَارياً

فيما عدا التساؤل الدائم حول أين نستقر، جرّبنا لفترة العيش في بوسطن ومارسنا الحياة طقوسياً تماماً كما كنا نفعل في بيروت وكما نفعل الآن في واشنطن: ننهض صباحاً، نشرب القهوة فيما نقرأ الجريدة (في بيروت كنا نجلس على شرفة شقتنا في الشويفات ونراقب صحراءها الخصبة)، نتناول الفطور، ونخرج للعمل أو لنتجول في شرايين المدينة دون دليل وهدف.

صعدنا مرة إلى برج «جون هانكوك» لنراقب بوسطن من فوق. صعدنا ربما إلى الطابق الستين وأشرفنا على نهر تشارلز، ومرفأ بوسطن، ومطار لوغن، وتلة بيكين، والجبال البيضاء البعيدة في نيو همشر، وجامعة هارفرد وغيرها.

وكأنما عرفت حبيبتي ماذا يجول في خاطري في تلك اللحظة فأخذت تقلّدني بسخرية، مما يدل أننا طوّرنا لغتنا الرمزية: رائع أن نشرف على المدينة من هذا العلو الشاهق. كفانا الغرق في الأجزاء والتفاصيل. رائع أيضاً، بل من الضروري، أن نراقب الشكل العام، أن نكتشف العلاقات بين الأشياء، وكيف تلتقي وتكوّن صورة مذهلة فتتحول إلى كائن جديد هو أبعد من الأجزاء وأهم. الحقيقة ليست العناصر منفردة بل العلاقات فيما بينها. طبعاً مثل هذا القول ينطبق على الأفراد والمجتمع. صحيح أن الفرد ليس شيئاً. هو ذروة الإدراك، ولكن المجتمع هو ذرورة التكون وفيه فقط ينشأ الإدراك والعقل والنفس والشخص والله. حقيقة أن الله رمز

المجتمع انطلاقاً من الأب. هو رمز الكل الذي يتفوق على الأجزاء.

وتتوقّف حبيبتي عن تقليدي وتكرار أفكاري لتسألني بلهجتها الخاصة: متى تنسى دراساتك الاجتماعية، وتتوقّف عن التّحليل وتكوّن نفسك؟

ـ نفسي أنني محلل.

ـ والتمتع والعيش والعفوية يا غليظ؟

ـ دائماً. دائماً يا مهضومة.

ـ انتبه! أخذت المرأة بطريقك!

ـ لتنتبه هي!

وأنصرف عن هذه المقاطعة لأقلّد تقليدها لي: ما دمنا لانستطيع التحرر من المكان، فلنحاول التحرر من الأسفل والتفاصيل والجزئيات. لنصعد إلى فوق. لنصعد بقدر ما يمكن ونطل على الأسفل فنشعر أننا نحلّق. هذا تماماً ما كنت أشعر به عندما أتسلق جبل السيدة أو عش الشوحة في الكفرون. هل تشعرين كأن قلبك ينخطف من صدرك عندما تطلين من مكان شاهق؟ أنا أشعر كأنما تنمو لي جوانح فأحلّق مذهولاً. ينخطف قلبي وينطلق من عشه مثل طائر الحوم، يرتفع، يرفرف بجناحيه. حقاً اختبار رائع أن ينخطف الإنسان، أن تتكون له جوانح فيجوب أجواء رحبة رحبة.

تضع حبيبتي يدها على كتفي وتقول: لننزل. أخاف أن تطير.

ـ أحملك على جناحي.

ـ بلا أوهام. تعال ننزل.

ـ لم السرعة؟ تذكرين عندما زرنا منير وحسني في شيكاغو؟

ـ يومها أيضاً أصررتَ أن نصعد إلى بناية برودنشل؟

ـ أذكر أنكِ أصررت أن نبقى هناك لوقت طويل؟

ـ صحيح. كان الوقت ليلاً، وبدت الشوارع كأنها أنهر من الضوء. أنهر بيضاء توازيها أنهر برتقالية.

ـ منذ زمن لم نر حسني وصفية.

ـ حقاً.

* * *

وهبطنا مرة أخرى إلى قاع المدينة. تمسكتُ بيد حبيبتي حابكاً أصابعي بأصابعها وخرجنا نسير في الشوارع والحدائق. توجّهنا إلى «هارفرد سكوير» ومنه إلى منتزه عام قريب. كانت الموسيقى صاخبة والغناء احتجاجاً وصراخاً متوتراً ضد سلطة مهيمنة. كانت تلك الأيام في مطلع السبعينات ثورة الأزياء وأساليب العيش. هذه هي الثورة التي يجيدها المرفّهون. احتجاج مرفّه ضد نظام يؤمّن لهم الرفاهية. راقبتُ وأنا أشبك أصابعي بأصابع حبيبتي عري الفتيات. انبطحت إحداهن على ظهرها تصغي للموسيقى الصاخبة، وتعرض أكبر ما يمكن من جسدها للشمس مكتفية بـ «شورت» ضيق وبصدرية محلولة مما يسمح للحلمتين بالخروج إلى الهواء الطلق. التقطتُ لها صورة مركّزاً العدسة على مغارة الزمرد والمرجان. يومها امتطيتُ زورقاً صغيراً ورحلت بعيداً في البحر بحثاً عن جزر المرجان.

وحولّتُ عدسة الكاميرا إلى صدر فتاة ترقص وحدها مغمضة عينيها غائبة كلياً عن العالم. ولمّا بدا أنني اهتممتُ بها أكثر مما يجب، علّقت حبيبتي: محشّشَة، لاشك.

ـ المهم أن صدرها جميل.

ـ أشبع نظرك.

لم يشبع نظري. على العكس ازداد إحساساً بجوعه القديم. أراقب أحد ثدييها يقفز خارج القميص المفتوح مثل الكتب المقدسة. كان ينتفض

كعصفور ملوّن اكتشف سر الطيران منذ برهة. حاول، بشيء من الوجل والاستهتار معاً، أن يطير في مختلف الاتجاهات. وضعتُ في كفي حبوباً نادرة وفتحتها علّه يغط على أصابعي وينقر ما شاء. وكان أن طال انتظاري دون جدوى فحوّلتُ نظري إلى شاب طويل نحيل تقمّص شخصية المسيح. مثله أطال شعره ولحيته وحمل عصا معقلية تماماً كتلك التي كنتُ أحملها في الكفرون لأقطف الرمان والتين والجوز وعناقيد العنب التي لاتصلها غير الطيور. ترى من أجل ذلك كان المسيح يحمل تلك عصا المعقلية؟

ابتهجتُ لتساؤلي كما لو أنني اكتشفت فجأة حقيقية أزلية رغم اقتناعي بعدم وجود حقائق أزلية. ترى كنا في الكفرون مانزال نعيش تلك الحياة ذاتها التي عاشها المسيح؟ هل كان يسبح عارياً، ويجوب الحقول ويتسلق الجبال، ويختبئ وراء أغصان الدفلى والدلب يراقب البنات يسبحن؟

ويتوجه الشاب الذي ينتحل في بوسطن شخصية المسيح، رغم المسافات الحضارية، لجماعة ممن تجمعوا حوله: أسألكم مَن هو نقيض المسيح في هذا العصر الهزيل. ستستغربون، وأفهم استغرابكم. ما أكثر مدّعي المسيحية في مجتمع يقوم على العنف ويمارسه في مختلف نشاطاته اليومية. ممارسة العنف متعة. حتى المتعة أصبحت عنفاً. الحب عنف. الرياضة عنف. الكتابة عنف. الجامعة عنف. الموسيقى عنف. ولكنني قصدت شخصياً شيئاً معيناً بسؤالي. قصدت بالأحرى دوراً معيناً. ليس التجار الذين طردهم من الهيكل نقيض المسيح فحسب. ليس السياسيون الذين يمارسون القهر فحسب. ليس الرأسماليون الذين يجوّعون العالم كي يصابوا بالتخمة فحسب.

الذي يتكلم باسم المسيح هو نقيضه أيضاً. بصراحة، البابا نقيض المسيح. إنه ملك متوج. إنه ملك الملوك. تأملوا العربة الفخمة التي يحملونه

فيها على الأكتاف. تأملوا المجوهرات والصولجان والحرس والحاشية. لاتنخدعوا بالوداعة. إنه حاكم مثل كل حاكم آخر. حوّلوا المؤمنين إلى رعية خاضعة.

قابلوا كل هذا بحياة المسيح. كان حافياً جائعاً مرسل الشعر ممزق الثياب. لم يكن يعاشر السياسيين والكهنة والتجار والمترفين. كان رفيق المعدمين والمرضى والمعذبين والفقراء يناقشهم في شؤون حياتهم. لم يسمح لهم بالسجود. كانوا يشمخون به. يتفتّحون مثل الأقحوان من الداخل. شجعهم على الاكتشاف والتحرر وليس على التمسك بالتقاليد وممارسة الطقوس. التقاليد خُلقت للإنسان وليس الإنسان للتقاليد. الإنسان هو الذي صنع التقاليد، فلماذا يتحول إلى صنيعة في هذا العصر التعس؟ الوعي المزيف يتسلط على العقل والروح والجسد. هل يمكن أن نجمع بين المؤسسة والثورة؟ مَن نقيض مَن؟ أقول لكم، كل شيء نقيض كل شيء آخر في هذا الزمن التعس. الدور نقيض الشخص، كما المؤسسة نقيضة الثورة. المؤسسة والدور الأكبر الذي يمثّلها يصر أن يبارك الفقراء ولكنه يرفض أن يتكون لهم وعي طبقي. هذه ليست لغة المسيح! إنها لغة رجال الأعمال والرأسماليين والحكام. أقول لكم بصراحة كلية إن المسيحية تحوّلت من دين المنبوذين والضعفاء والفقراء والمرضى والمعدمين إلى دين النخبة والأقوياء والأغنياء والمتخمين. إنها مؤسسة مرتبطة بالمؤسسات الأخرى والنظام العام.

وكانت هناك مشاهد لاتقل طرافة فحوّلتُ عدسة الكاميرا عن مسيح هذا العصر إلى شاب حمّر شفتيه ولبس حلقاً وعقداً وحذاءً نسائياً، ثم إلى فتاة خطف صديقها صدريتها فطاردته دون أن تغطي ثدييها المترجرجين، ثم إلى جماعة كريشنا يدقون دفوفهم ويغنون ويرقصون ويجمعون التبرعات، ثم إلى كلب اندمج في حالة الصخب فيركض في مختلف الاتجاهات ويدور حول تمثال جورج واشنطن ليبول حيث شطب أحدهم

الكتابة الأصلية وكتب بدلاً منها بخط شاحب: الديمقراطية اغتصاب.

وها نحن، حبيبتي وأنا، نشبك أصابعنا ونتجول في واشنطن بدلاً من بوسطن بعد حوالي خمس عشرة سنة. تغيرت الأمور كثيراً. لاتزال المتعة سيدة القيم ويعود النجاح ملكاً متوجاً يقيم نصباً تذكارياً للتنافس على أنقاض الصداقة. وتغيّرت الأزياء فالشباب في الوقت الحاضر أنيق يقرأ مجلات الإعلان الصقيلة، وطنيّ، غاضب على العالم الثالث فيتساءل من هذه الشعوب المتخلفة تتحدى أكبر قوة في التاريخ. تغيّرت الأزياء، ولكن الانشغال بها لم يتغير. الجوهر واحد أيتها الثقافة المضادة، وأنت أيتها الثقافة السائدة. كلاكما وجه للمتعة في مجتمع مرفّه.

لا أظن أن حبيبتي كانت تفكر بالأمور ذاتها. كان وجهها، عكس ما كان عليه وجهي، هادئاً كغيمة بيضاء فوق خليج دخل عميقاً في البر. ربما عادت تفكرّ بوضعنا. خرجناإلى العالم الرحب كي ننسى. هل يمكن أن ننسى؟ كيف تنسى أمي الحاضر وتذكر الماضي السحيق؟ ماتزال تستدعي أقرب الناس إليها في الطفولة فتنادي أسماء من ماضيها السحيق وتدخل في حديث حقيقي معها. أتساءل أين حدود الواقع وحدود الوهم؟ كيف يتحول الوهم إلى واقع والواقع إلى وهم؟ ما معنى أن تعيش في هذا العالم السّديمي؟ بل أليس غريباً أن تعود من الوهم إلى الواقع وتنطق بوضوح كلي؟ نادتني مرات «خالي رشيد، يا خالي رشيد»، فقلتُ لها «أنا ابنك ولست خالك»، فأوضحت «أنت خالي وأبي وأمي وأخي وأختي وابني وكل شيء يقربني».

اندهشتُ ولجأت إلى الصمت. هي أيضاً تصمت لبرهة ثم تتحدث لنفسها، «تركتني يا أسبر. نيالك متّ. أنا الله رافض يأخذ روحي. أعطوني سم لموت. ديروا بالكم على البنت. طعموها».

وأسألها مَن البنت. لاتجيب. أحاول أن أفهم. تتكلم حول أمور عديدة.

وفجأة أدرك أنها تقصد نفسها. هي ابنتها التي فقدتها في الطفولة الأولى.

وتحوّلت عندما أعدناها إلى البيت. لم تكن تعرف أين هي عندما كانت في المستشفى، ولاتدرك أين هي الآن، إنما يجب أن تكون قد تحسست تبدلاً في أوضاعها. سألتها أن تغني فلم تتردد. وبصوت خافت متقطع، حاولت أن تغنيّ:

ثلاثي وأربعة وتنين تسعه   عاصديركْ دبيب النمل يسعى
وين أهل المروّة اليوم تسعى   يفكو لي الحديد مِنْ الرقاب

كثيراً ماسمعتها تغني، ولكنني لم أسمع بيت العتابا هذا منها من قبل. المهم أن أم حليم مناضلة، وقد بدا لي في تلك البرهة أنها مرة أخرى ستتغلب على الموت. وترسّخ إحساسي هذا عندما انتقلت من غناء العتابا إلى لحن إيقاعي تماماً كما يفعل المغنون البارعون في الحفلات:

شوف الزين عادولاب البيرى   خَدْ الزين يا شلّة حريري
وني لعاشرك وأنتِ صغيري   قبل ما يصير ببزازك حلابا
سكابا يا دموع العين سكابا

لم أصدّق ما أسمع. أم حليم تعرف مثل هذا الشعر وتردّده؟ غير ممكن! أي عالم يستيقظ في ذاكرتها المهددة بالانقراض؟ أية مكبوتات هذه؟

وتعود إلى أجواء الحزن. تغنّي بيتاً آخر من العتابا لم ألتقط منه إلاّ مقطعاً صغيراً يقول:

حباب الدار وين راحوا   شبيه الطير لو قصّوا جناحو

أطلب أن تعيده. تحاول. لاتتمكن. تقول «تعبت»، وتنام. أتساءل «هل اليقظة ممكنة؟ ترى تبصر في نومها كوابيس أم أحلاماً؟ هل يختلف النوم عن اليقظة في حياتها؟»

طرحتُ عليها السؤال الأخير مراراً فقد قلتُ لها مرّة إن كلامها المضطرب خربشة، فأجابتني، «بحكي مثل مابشوف بنومي». لم أصدق ما سمعت. تمنيت لو أن فرويد سمع هذا الكلام.

واستغرقت في نومها، فامتلكتني اليقظة. وجدتُ نفسي أجيب عن سؤال لم أجد له جواباً في السابق: متى تعلّمت الكتابة وبمن تأثرت؟ يجب أن أكون قد تأثرتُ بك يا أم حليم دون أن أعرف. يجب أن تكوني شاعرة كي تتمكني من القول في عالمك السديمي، «ما في عين تشبع شوف من عين». أنت شاعرة. أنت مناضلة. أنت حزينة ولست منحوسة كما ترددين دائماً. ترجين «دخيلك فكّني من التعب»، وتسألين الله «يارب ليش حاطط حطابي». الله لا يجيبك فتغنين لنفسك:

جرى دمعي على خدي مِن الهمّ   ولا صايغ جلا قلبي من الهم
خَمّنت الصفا غالب على الهم   أتاري الهم غلّاب الصفا

يجب أن يكون هذا ما تشعرين به الآن؟ ترى لو أنك في حالة أخرى هل يمكن أن تعكسي البيت ويظل بيتاً من الشعر؟ هل الشعر بيت أم عراء رحب؟

طالما اعتبرتُ أبي طائر حوم! هل أنتِ أيضاً طائر حوم؟ وأنتَ يا طائر الحوم، كيف ترى نفسك؟ ما اللغة التي تتكلمها مع نفسك ومع الشجر والغيوم والمطر والماء؟ هل من علاقة بين لغتك ولغة الماء؟ وعندما تحلّق فوق الأرض ما علاقتك بالريح وماذا تراقب وعمّ تبحث هل تعتبر السماء خيمتك. هل تقرأ أبجدية النجوم؟ هل تقبل أبي وأمي بين أسرابكَ؟ هل تقبلني أنا في المستقبل؟ هل تعيش طويلاً؟ ماذا تفعل حين تعجز عن الطيران؟ هل تختبر الموت البطيء؟ أخبرك أن أمي يطول موتها البطيء. الطب لا يستطيع أن يشفيها ولايتركها تموت بكرامة. تناديني من أعماق يأسها، «دخيلك فكّني من التعب». كيف أستطيع أن أفكّها من التعب؟

ترى ما يشغلني حقاً هو أن أفك نفسي من تعبي بها؟ أشك بذلك. اليوم، اليوم بالذات سمعتُها تغني لوحدها ولنفسها:

عتابا ويا حزيني مابليتي بلي جسر الحديد وما بليتي

أعتذر منك يا طائر الحوم! أشغلك بمشاغلي. ولكن أريد أن أخبرك شيئاً آخر، شيئاً واحداً فقط، قبل أن أغيّر الموضوع. أمس لاحظ أخي أن أمي يقوى جسدها ويضعف عقلها فعلّق «هذا يعني أنها تحتاج إلى عناية أكثر فأكثر»، وعقّبتُ على كلامه بحسرة «ولوقت أطول». آسف سأغير الموضوع. أخبرك أن جارتنا في إحدى ضواحي واشنطن وضعت ملصوقة على سيارتها تقول «إذا كنت غنياً فأنا عزباء». وجدت بذلك مناسبة للكلام معها فقلت «أنا فقير، إذن أنت متزوجة» لايبدو أنك تجد في كلامي أية طرافة. أسمع شيئاً آخر. أخبرك أن أمي (آسف أن أعود إلى هذا الموضوع) كلما وجدت نفسها في مشكلة تردد مقطعاً من الصلاة. في هذه الأيام تعاني من الكتام فتبتهل عندما تدخل الحمام بصوت عال، «بشفاعة والدة الإله يا مُخلّص خلّصنا».

يا طائر الحوم، يبدو أنك غير قادر على الضحك! لماذا؟ هل خلت حياتك من الطمأنينة؟ نحتاجها بين وقت وآخر. منذ فترة عبرتُ إلى شاطئها. لسبب ما قلتُ لأمي، «عفاك يا أم حليم يا شاطرة» فأجابت، «تقبر هكذا شطارة».

لو تبتسم قليلاً، يا طائر الحوم. أمس دخلتُ إلى غرفة أمي ووجدتها عابسة فقلت «شوبك عابسة؟ وجهك مثل طيز بو علي». هل تعرف ماذا كان جوابها؟ سألتني «ليش أنت شفت طيز بو علي؟».

□□□

أفراحُ الحَمامَة وَأحزانُها أيضاً

يجب أن نكون قد اكتفينا بمراقبة عري المدينة. ألقينا نظرة أخيرة على نهر «البتومك» وهبطنا لنتابع تجولنا في مختلف أنحاء «المول». جلسنا قرب رجل هرم يطعم الحمام. تقترب منه حمامة بثقة وتنقر قطع الخبز من كفه، فأسأل حبيبتي: لماذا نسمّي نحن العرب عضو الطفل حمامة؟

ـ غريب.

ـ حقيقة أريد أن أعرف.

ـ عدت إلى الهذيان.

ـ أعرف امرأة جميلة اسمها أفراح الحمامة.

تضحك بانشراح وبصوت مسموع، فتتوقف قربنا سيدة أميركية وتقول بغضب: تكلموا بالإنكليزية، أنتم في أميركا.

تفاجأنا. فأطلقت عليها نظرة ساخرة. أشارت لي حبيبتي أن أتجاهلها قائلة، «لاتريد أن تشرّفها بجواب».

تابعنا السير، ولكنني ظللت أفكر أنني كان يجب أن أقول لها شيئاً يغيظها كأن أقول لها مثلاً «حسبت أن في أميركا حرية» أو «أننا نتكلم شعراً. والإنكليزية هي لغة التجارة» ولكنني تفهمت فقد كانت امرأة عجوزاً. لم أتفهم في الواقع، فقد وجدت نفسي أبحث عن المرأة كي أواجهها. اختفت في زحمة الناس. خطر لي أن العرب في بلادهم يتكلمون لغات أجنبية باعتزاز. لماذا؟ أذكر ملاحظتك يا محمود:

نستهضم نحن العرب الأجنبي إذا ما حاول أن ينطق العربية ولو جاءت كلماته مشوهة، ونحاسب أنفسنا بقسوة فنسخر من أحدنا إذا اقترف خطأ صغيراً عندما يتكلم الإنكليزية أو الفرنسية. هذه ملاحظة دقيقة يا محمود. ترى لماذا؟

التفتُّ إلى حبيبتي وقلت: عندي فكرة. ما رأيك لو نذهب إلى جبال «شننوده» ونبيت هناك الليلة؟

ـ فكرة. ولكن عندي شغل بكره.

ـ بلا شغل بلا بطيخ.

ـ تريد أن تتسلق القمم وتنخطف؟

ـ ونهبط إلى الشلالات إذا أردت.

وتوجهنا إلى السيارة دون تردد. ضاق الأفق وتغير شكل العالم. هذا ما شعرنا به حالما هبطنا نصب جورج واشنطن التذكاري. كان تعليق تلك السيدة إعلاناً بالهبوط. نخترق زحمة الناس. نخترق الفوضى وتخترقنا. ذرات صغيرة تتصادم في مساحات ضيقة.

ونجد أنفسنا في طريقنا إلى الشلالات الكبرى. يجب أن نكون قد حدنا عن الطريق إلى شننده دون وعي. رغم ذلك تابعنا، فقد تذكرت العاصفة المطرية التي حدثت أمس. لابد أن النهر في حالة اهتياج والشلالات في أوج غضبها وتدفقها. أرى شبهاً غريباً بين تدفق الشلالات وموسيقا بيتهوفن. من زمن لم أسمع السيمفونية التاسعة.

اقتربنا من شير شاهق الارتفاع وأطللنا على النهر. كان كما توقعنا في حالة غضب شديد. نتقدم من حافة الشير فتبحث يدي عن يدي حبيبتي وتشتبك أصابعي بأصابعها. تسألني: خائف؟

ـ أظن.

ـ تغيّر لونكَ ويبدو أنكَ ترتجف.

ـ بقدر ما أحب المرتفعات، بقدر ما أخافها.

ـ حسبت أنك تحب الطيران.

ـ صحيح.

وبدل أن أتراجع، وجدت نفسي أتقدم من الحافة وأطل على النهر. المياه تتدفق مثل آلاف النمور مزبدة، مجلجلة، مضطربة، مهددة. للسقوط دوي رهيب، والهواء مفعم بالرذاذ.

شيء ما في صدري ينخطف. أحسه بكل جوارحي. ينطلق مثل طائر الحوم. ها هو يرتفع، يضرب جناحيه في وجه السماء الواسعة، يخترق كثافات الغيوم البيضاء فوق الأطلسي ويشرف عليها فتبدو له مثل نعاج ترعى في سهل الملوعة وأحياناً كغطاء قطني تلتحفه الأرض، يعبر كثافات الغيوم السوداء الممطرة فوق أوروبا، يغط على قمم جبال الألب متتبعاً خطوات هنيبعل، ينتشي بشمس المتوسط، ينتقل مع السندباد من جزيرة إلى جزيرة، يبحث عن يولسس الضائع، يريد أن يسدّد خطواته باتّجاه المرأة التي تنتظره، يستعيد موت سقراط فيهطل المطر فوق البحر، يقترب من شواطئ سوريا خاشعاً وجلاً يستنطق التاريخ السحيق كجروح الإنسان ويحسب حساب الصيادين، يتمهل فوق أنطاكية الحزينة باحثاً عن آثار المكتبات والمعابد، يحلّق فوق مرتفعات كَسَب وصلنفة وقدموس ومصياف وجبل القصير، يتعمّق بتأمل وادي جهنم ويستغرب هذه التسمية مأخوذاً بجماله، يستدير متفقداً قلعة الحصن وبرج صافيتا، يشهق عندما يطل من «باب النقب» على وادي الكفرون فيغط مطمئناً مبهوراً.

أجلس على تينة «الضهر» فوق حاكورة فرح التي أسماها نجمة الصبح، وأستعيد طفولتي متحرراً من متاعب الحاضر. أجوب الأزقة والأحراج

والبساتين والسواقي والجداول والأنهر حافياً. أتسلق الصخور والأشجار والتلال والجبال. أقطف الأثمار برهة نضوجها، وأرافق العصافير حتى أعشاشها، فأحنو خاصة فوق تلك البيوض المرقطة. ساعدتُ مرة عصفوراً في قتل أفعى اقتربت من العش لتأكل البيوض. أنشأتُ علاقة تنافسية إنما ودية مع ظلي. كنتُ أراقبه طويلاً رفيعاً في الصباح، ثم يبدأ بالتقلص كلما قربنا من الظهر عندما نعود سوية ونقيّل مع الماعز عند المخاضة، ثم نعود إلى الجبل عندما يبدأ بالتطاول حتى يبتعد عني كثيراً عند الغروب. في علاقتي مع ظلي أجد أنني أتحول تجاهه قزماً في الصباح والغروب وأشرف عليه عملاقاً عند الظهر وأطرده من حياتي ليلاً. أركض باتجاه الشمس حين أريده أن يطاردني. وبالاتجاه المعاكس عندما أفضّل أن أطارده. يهرب مني، وأهرب منه دون انفصال. وكثيراً ما أحيد فجأة يميناً أو يساراً أوأستدير حول نفسي أوأتقدّم أو أتراجع رغبة في تضليله ولكنه كان دائماً يقظاً مأخوذاً كلياً بأسرار اللعبة. ولأنني كنتُ مثله يقظاً مأخوذاً به، لا أذكر أنه تمكن أن يغلبني كما لم أتمكن أن أغلبه. المهم أن علاقتي به كانت عامرة بالنشوة مهما كانت النتيجة.

كنا نخترع لُعبنا ولم نكن نتلقاها في الأعياد مرتفعة الثمن متظاهرين بالمفاجأة. بين الألعاب التي اخترعناها أنا ورئيف أن نتنافس في من يبول أبعد من الآخر، وأن نتفنن في سرقة الجوز والعنب والرمان وأن نحوّل المياه عن مجاريها دون أن يلقطنا الناطور الذي كنا نسميه الشوباص. آه منك يا عمي ميغال! كنت تراقبنا عندما عيّنوك شوباصياً من خيمة الغار على سطح بيتكم. لن أنسى عندما سرقنا رمانات غالي (لا أتكلم رمزياً هنا) فانتظرتنا في السارود وراء بيت دعاس. وجدنا أنفسنا أمامك وجهاً لوجه فلم نتمكن من الهرب. طلبتَ أن نفرشخ إلى أقصى ما يمكن حتى كدنا ننفسخ، وضربتنا بقضيب الرمان على سيقاننا. لا أزال أشعر بلسع قضيب

الرمان على ساقيّ حتى اليوم. لا أفهم الآن كيف كنا نستجيب بسهولة لطلبات الأستاذ جميل والأستاذ عبد الله أن نذهب للبستان ونقطع لهما قضبان الرمان ليعاقبونا. كنا نختار أفضل القضبان. كيف أصبحنا جزءاً من عملية قصاصنا؟ وبالمناسبة من أعطاك هذا الاسم يا عمي ميغال؟ متى هاجر والدك إلى كوبا؟ متى بدأت الهجرات؟ آه من الهجرات. لماذا كنت قاسياً؟ لم يشفع بي أنني كنتُ صديق ابنك لطيف. لاأزال أذكر بوضوح كلّي موت ابنك رفعت باكراً في مطلع الطفولة. هل كان سيكون مثلك رفيعاً قاسياً مثل الصوان عند نبع الشير؟ يوم ضربتنا لم أجرؤ أن أقول لك لماذا لاتؤدب ابنتك لطيفة التي تجتمع مع حنا الندره سراً، كما تؤدبنا. كنتُ أحب حنا ولطيفة ولا أريدك أن تعرف. ثم ما نفع المواجهة معك. عندما كان بعضهم يذكّرون بذنوب أولادك كنتَ تقول باستخفاف «نحن عائلة لايناسبها الشرف» فيضحكون مسحورين بأسرار الغوايات. إن أولادك بين أهضم الأولاد. أفكر دائماً بلطيفة وحنا. أفهم أنهم نزحوا إلى بيروت ولكن لا أفهم ماذا أخذهم لأستراليا. لطيف يعيش في ألمانيا، وسلوى في ألباسو، تكساس. لماذا هذا التشتت؟

وأنت يا (....)! لن أذكر إسمكَ أوألمح إليه كي لايعرف أهل الضيعة. لماذا كنت قاسياً أيضاً. والآن وقد متَّ ودُفنتَ عميقاً في التراب وتحوّلتَ إلى عظام منخورة أقول لك إنني قطفتُ مشمشتي إبنتك قبل أن تصبحا رمانتين. أطمئنك أنني لم آكل رمانتيهما عندما كبرت. الله يستر عليها وعليكَ وعليّ. أخبرك هذا السر الآن لكي أهز عظامك المنخورة في القبر لكثرة ما كنت قاسياً علينا. ما الخطأ في أكل المشمش يا...؟ أعشقها في بدايات البزوغ. ما أطيب الحصرم مع الملح! أعتذر منكَ. أليس من اللؤم أن أتكلم لغة الانتقام! في الواقع إنني لا أفضح هذا السر لهذا السبب. قد لاتفهم إذا قلتُ لكَ إن الكتابة عندي اعتراف بأسرار مكبوتة.

وأنتَ أيضا يا فؤاد لماذا كنتَ شرساً في صغرك؟ في طريقي إلى بيت بدرا كنت أخاف شيئين: أنتَ وكلاب بيت الشيخ علي. سمعتُ ولست متأكداً من هذا الخبر أنك كنتَ تطلع إلى جبل السيدة وتراشق الله بالحجارة. لا أدري إذا كنتَ أنتَ الذي فعل هذا أم ميغال أم ميكادو. أظنكَ أنتَ، فعندما تحوّلتَ من طفل شرس إلى شاعر رقيق، ظلّت كلماتك تتفجر غضباً أحياناً فقلت مرة: «فيا ثورتي أزيحي إلهاً كهذا الإله». أعرف أنك شديد الكبرياء ولن تطلب العفو عندما تكبر وتقترب من الموت. ربما تظن أنك لن تموت لأنك تكتب شعراً. أخبرك أنني عندما التقيت ميكادو مؤخراً سألته إذا كان لايزال يمشي بسرعة كما نعرف عنه فقال لي «لا أزال أمشي وأركض وأطير». ولما ذكرته بتلك الأيام التي كان يحمل فيها سلتين، واحدة مليئة ببضائع استوردها من طرابلس والأخرى بمزيد من البيض، مرة اشتريت منه قلماً ببيضة، ضحك من أعماق قلبه وطالبني بمزيد من البيض لأن ذلك القلم هو الذي علّمني سر الكتابة.

تذكّرناك كثيراً يا فؤاد عندما زارنا أبو صفا مؤخراً في واشنطن. عجبت كم تتشابه ذكرياتنا رغم فارق العمر بيننا. أبو صفا لايجد في الأمر غرابة. قال إن ذكرياتنا واحدة لأن الأجواء التي عشناها واحدة. المياه الرقراقة نفسها، المحيط نفسه، الهواء نفسه، العصافير نفسها، أشجار الرمان والصفصاف والدلب والسنديان نفسها، الطرق والتلال والأودية والصخور نفسها، والناس هم هم جيل بعد جيل. جيله السابق لجيلنا كان أكثر شقاء ولكنه كان يفرح بالأشياء الصغيرة التي كنا نفرح بها. حدثني، كما لو أن الماضي كتاب في راحتيه، كيف كان يذهب إلى المخاضة وينام تحت سنديانات الشيخ عبد الله ويسرق تينة أم طنسي ويصطاد العصافير تحت القرطمة ويلعب الحاح والدقس والسمركة ويعب الماء من عين فرشلو. وتحدث أيضاً عن اللحم المشوي في الأعياد وعن

البطيخ ولعب السيف والترس والجريد على ظهر خيول تكبح كبحاً وصيد السمك بالقوس والنشاب وسرقة الرمان والعرانيس والجوز. وكأنما فجأة بدأ ينظر إلى الماضي من زاوية الحاضر، علّق أن هذه الأمور تبدو صغيرة خاصة للذين لم يختبروها ولكنها كانت وماتزال تستثير مخيلاتنا فتنطلق وراء أبعد الحدود المألوفة وتوقظ في أعماقنا آلاف الأحاسيس. وأضاف دون شعور بالمبالغة «صدقني أن الصحة الجيدة التي أتمتع بها في هذه الأيام وأنا في الواحدة والسبعين تعود إلى تلك الأيام. لاشك عندي بذلك. يجب أن يكون لها علاقة بالهواء الطلق والبرغل بلوبة».

ويضحك أبو صفا من أعماقه، ثم يهدأ وتتلبد في وجهه غيوم كثيفة فأدركُ أن ذكريات أليمة يجب أن تكون قد استيقظت في نفسه. وكان ما توقعته، فقد أوضح أن جيلنا أكثر حظاً من جيله، في طفولته سمع حكايات الناس الذين ماتوا جوعاً ولم يجدوا من يدفنهم سوى الذي كان يحملهم على ظهره ويرميهم في هوة عميقة فتتراكم هياكلهم العظمية مثل كومة من الحطب اليابس، وحكايات الرجال الذين أخذهم الأتراك للعسكر فعاد بعضهم ليجد أن الجراد أكل الأخضر واليابس وحصد الموت زوجاتهم فهام أطفالهم على وجوههم.

ويستدرك نفسه فيعود تواً لأجواء الفرح. «رغم ذلك» يشدد بثقة، «كان جيلنا أكثر سعادة من جيل أولادنا المنعمين. غريب أمر السعادة رغم القلة، والتعاسة رغم الكثرة».

ويتوقف عن الكلام موضحاً أنه لايعرف ماذا يخبرني لكثرة ماتتلاحق الصور في ذهنه. أخبرني قصة حبه الطفولي لغريبة وبكائه المر حين تزوجت ومرت عروساً على حصان أمام بيته، وقصص سابا وجميل الفرح وإبراهيم الأسعد والشيخ ابراهيم الحسين. عن هذا الأخير أخبرني أنه كان كريماً إلى أقصى الحدود فكانت زوجته تصر على استضافة الناس الذين

يمرون أمام بيتهم، وأنه، أبو صفا، مؤخراً قصد ابنه محمود بمهمة فرفض أن يلبّي طلبه قبل أن يأكل معه صحناً من المتبّلة.

آخ، ما أطيب المتبّلة يا عمي أبو صفا. صحيح جداً أننا نفرح بأشياء صغيرة ونراها كبيرة جداً. قد يرى الآخرون النهر عندنا جدولاً ولكننا نراه نهراً، وقد يرون جبالنا تلالاً ولكننا نراها جبالاً شامخة تكاد تلمس السماء. هل من المبالغة أن ابنك الطبيب صفا عالج مريضاً عدة أيام في واشنطن ولم يأخذ منه فلوساً لأنه عرف أن الرجل أصله من برشين وبرشين ليست بعيدة عن الكفرون؟ ثم تقول إنك لم تعرف متى بدأت تسبح. إنك لاتبالغ. أنا أيضاً لا أعرف متى. كأنما ولدنا في الماء مثل الأسماك. وهل من الغريب أن صديقنا سعيد الذي تقاعد مؤخراً وأصبح مولعاً باصطياد السمك، هل من الغريب أن تتغلب عليه في فترات الطمأنينة ذكريات الكفرون فيستيقظ في نفسه الشعر الذي هجره منذ زمن طويل؟ يردّد لي أنه يعرف الكفرون أكثر منا جميعاً فقد عاش فيها طفولته وفتوته ويتحسر كأم خسرت ابنها في طفولته اليافعة أنه هجر وانغمس في تفاصيل المعيشة في عالم شديد البرودة. ويسمعني قصيدة (وكاد يغنيها) كتبها سنة ١٩٤٢ بعد لقاء مع حبيبته عند نبع الشيخ حسن:

يا حبيبي غمر الصبح الجنانا ... وانثني يبحث عنا فرآنا
ووشى النبع بأسرار لقانا ... للشخارير فغنّت بهوانا
هو ذا «الشيخ» ينادينا إليه ... جاعلاً من بردتيه ـ رضى الله عليه
ملجأ كالقدس ستراً وأمانا ... يزرع الكتمان في ظل خطانا

ويتوقف سعيد عن غناء شعره كي لايسترسل في حسرته ويفقد سيطرته على أحاسيس اعتاد أن يلجمها. يدرك في قرارة نفسه أن العالم

المتحضر سلبه نعمة الشعر، ولكنه يحمّل نفسه المسؤولية. يكتب حسرته وربما غضبه (لا أدري) ويغنّي مقطعاً آخر من قصيدته القديمة:

فبكى النبع غراما   وانتشى الليل وناما
فافترشنا ساعدينا   وهمزنا شفتينا
وبعثنا قبلتينا
فصحا الصبح وقاما   يقرئ الشيخ السلاما
وبأعطاف الندامى   نسمٌ مرَّ وهاما
يتحدى شفتينا   ويندّي وجنتينا
باعثاً بالعطر منا وإلينا
قم حبيبي لنسارع بخطانا   فضح الصبح هوانا

هل غريب أن يجتاح الشّعر عالم صديقنا سعيد جبرين وهو يصطاد السمك عند شلالات نهر البوتمك فيغني دون أن نسمعه مقطعاً من قصيدة جديدة كتبها سنة ١٩٨٦ واصلاً إياها بقصيدته القديمة؟

إليك* يا ليلُ عني   خيّبتَ في الحب ظني
ما جئتَ تطلب مني   ضيّعتُه من سنين

ما أكثر الأشياء التي أضعناها يا سعيد. لذا أتمسك بذكريات الطفولة. أستحضرها مثل ثمرات المشمش والرمان في بدايتها.

أركض في ساقية الطاحون كمهر، وأسبح في غبابيط النهر تحت الدلب مثل السمك أو الضفدع، وعارياً أسبح مع زكي وصبري ورامز وبديع وبدري وحسني في غبيط الحومة. ثم أرتدي ثيابي مبللة وأزور حسن ومحمود وعبد اللطيف. فوجئت مرة أن حسن تسلق السلم والتقط حماماً من طاقة فوق عتبة بيتهم وذبحها وشواها وأطعمنا إياها دون أن

يستشير أمه. مازلت أشعر بالذنب حتى الآن يا حسن فقد تسببتُ في ذبح حمامات وديعة ولكنني أدركت أن عملك كان تعبيراً عن كرمك. هل تعرف ماذا حدث بعد تلك الوليمة؟ نزلتُ إلى نبع الشيخ حسن ووجدتُ عنقوداً من العنب في النهر فقضيت عليه. وقد عرفتُ فيما بعد يا حسن أن أختك تركته يبرد في مياه النبع لضيف عزيز تنتظرونه.

أركض في النهر وأخبُّ فيه مثل حصان جموح متكبر تحرّر من سرجه ولجامه. المياه تنرش عن يميني وشمالي، ويتطاير بعضها إلى وجهي وصدري وكتفي. المياه، المياه، المياه. كانت الأرض في البدء مياهاً. ستعود الأرض مياهاً. أبدأ معها حيث تنفجر ينابيع، وأتدفق شلالات تجاه الأودية العميقة. أسيل معها في السهول، وأتسرب إلى جوف الأرض ومسام النباتات. وأتبخر فأسافر غيوماً بيضاء داكنة، وأحدث برقاً وصواعق، وأهطل مطراً، (آه يا مطر، يا سرَّ الخصب والولادة). تمتصني الأرض العطشى حتى ترتوي ثم أتفجر نبعاً بين الصخور مثل نبع الشيخ حسن (أيها الشاعر الرقيق، يا شاعر الآلام يا شيخ حسن)، أو مثل نبع الشير (إنك ملجأ البواشق يا شير يعصى على التسلق)، أو مثل نبع كركر الذي شرب منه نسيم مسوح فأصبح شاعراً شعبياً وسمّى نفسه نسيم النبع.

هبطتُ النهر قافزاً من صخرة إلى أخرى. تسلقتُ الدلب المنحني فوق المياه، وطاردتُ السمك وقطفتُ حبوب الديس أو العليق السوداء فاصطبغت أصابعي بدمي ودمها. اختبأت في دلبة كثيفة وراقبت جماعة من الفتيات يسبحن. لايسبحن عاريات كما نفعل نحن الصّبيان، ولكن ما أن تتبلل ثيابهن حتى تبزغ خيرات الأرض مغلّفة بضباب شفاف. آه، ما أجمل غموض الجسد!

عندما وصلتُ غبيط المخاضة ذلك اليوم، وجدت جماعة من أصدقائي يسبحون فنزعت عني ثيابي وتباريت معهم في الغطس، ولما مرت بعض

الفتيات عند معبر «المخاضة» لم نستر حماماتنا الوديعة. على العكس، أدرناها غرباً باتجاههن فصرخت أم إحداهن وكانت تحمل على رأسها رزمة من قصب الذرة: «يقلعكم أنتم وحماماتكم، انضبّوا يا زعران». لو تعرف علاقتي بابنتها لقلعت حمامتي من شروشها. قبل ذلك بأسبوع، كنت أسير معها في بساتين الغرب ونتحدث عن فضيحة غامضة أحدثت اضطراباً في الضيعة. ضبط رجل ابنته تنام مع فتى في خيمة الغار، فأشبعها قتلاً. سألتني الفتاة الجميلة المهضومة التي كنت أسير معها وحيدين في بساتين الغرب عن الفضيحة وماذا يمكن أن يكون الفتى والفتاة قد فعلا. ولما كان الوقت ظهراً والبساتين فارغة وكنتُ أفضّل، على مايدو، التطبيق العملي على الشرح النظري، تسللتُ أنا والفتاة الجميلة بين قصبات الذرة الطويلة الكثيفة ومثّلنا الأدوار المطلوبة. لم نكرر اللعبة فيما بعد رغم إلحاحي، فقد خافت حقاً. أصبح كل منا يتجاهل الآخر حين نلتقي صدفة. ربما اكتشفت أن الحمامة لم تكن بريئة حتى في ذلك العمر. ترى تذكرين حتى اليوم كما أذكر بوضوح؟ أتصور أنني سأخجل إذا مالقيتك صدفة في هذه الأيام. هل سيحمرّ وجهك قليلاً؟ الله يستر على الجميع يا صديقتي الصغيرة. ترى تغضبين إذا ما ضبطتِ ابنتك التي تشبهك كثيراً تلعب اللعبة ذاتها؟ ليس عندي بنت كي أعرف كيف يمكن أن أتصرف. آه، للمناسبة، أُطمئنك أنني لم أذكر اسمك لأحد مع أنني أضبط نفسي أحياناً أفاخر بتلك المغامرة الجميلة العذبة مثلك يا حلماً من الماضي السحيق. لم أصارحك من قبل بأننا كثيراً ما التقينا في الأحلام وجدّدنا اللعبة بأشكال وأجواء ومواقع شديدة الاختلاف مستفيداً من القراءات والخبرات التي اكتسبتها فيما بعد. حلمتُ مرة أننا تغازلنا فوق شجرة، ومرة أخرى تحت الماء وقد استغربتُ أن يكون لنا مثل هذا النفس الطويل. وطالما حاولتُ أن أكبت حلماً آخر. أشبعونا في المدرسة دروساً دينية،

فزرتني مرة في الحلم بشكل ملاك. كان لك جوانح غريبة الألوان فلعبنا اللعبة على الأرض وفوق الأشجار وداخل غيمة، ثم نمتُ هانئاً في ظل جناحيك الملائكيين. وتحوّلنا إلى مياه رقراقة تلتقي وتنفصل، تلتقي وتنفصل في ظلال الصفصاف والدلب والغيمة البيضاء التي تتمرأى في النهر.

إسمعي، أريد أن أعترف وأعتذر. التقيت مرة بك فعلاً في سيارة بعد عشرين سنة ولم أتكلم معك. كم خاب أملي وحزنت. ركبتُ يومها سيارة من طرابلس إلى صافيتا وكنتِ أنتِ تجلسين قرب السائق ومعكِ ولدان صغيران. سألكِ السائق عن أهلكِ وإخوتكِ فعرفتُ أنكِ أنتِ. كم تغيّرتِ يا صديقة الطفولة. سمنتِ كثيراً، ترهّلتِ، شاب شعرك. حزنتُ. كيف يمكن أن يحدث هذا وأنتِ لاتزالين شابة؟ تُرى زوّجوك رجلاً كبيراً رغم إرادتك فأهملت نفسك إلى هذا الحد؟ لماذا ترى المرأة أن حياتها الخاصة تنتهي حالما تتزوج وتبدأ حياة العائلة؟ لا أقول إنك على خطأ. أتساءل فحسب. ربّما لم يكن أمامكِ أي خيار آخر. خفتُ أن أذكّرك بنفسي فتمحي المسافة بين الحلم والواقع. امّحت المسافة في مخيلتي منذ ذلك اللقاء، فلم أعد أحلم. انتهت اللعبة إلى الأبد، بدأ هذا الإحساس الملح بمأساة شيخوخة المرأة في الصبا. يخطر لي أحياناً أنكِ عرفتني ولكنك تجاهلتِ للسبب نفسه. أظن أنني أقل حظاً من أخي الذي لم يقع نظره على صديقة طفولته منذ رشاها بعلكة، فدخلت معه إلى خيمة الغار وكشفت له عن بضائعها الجميلة كصباح صيفي في الكفرون. لو تعود الأيام الماضية ونذهب إلى البساتين قبل أن تطلع الشمس ونقطف التين والرمان وأقراص البندورة الحمراء.

بعد ان سبحنا في غبيط المخاضة وسمحنا للحمامات أن تطير غرباً باتجاه الفتيات الصغيرات، لبستُ ثيابي وتوجهتُ نحو المطحنة. كان حجر

الرحى يدور بسرعة مجنونة، فراقبتُ بشغف حبات القمح السمراء تتساقط بانتظام إلى مصيرها المحتوم فتتحول طحيناً ناصع البياض. ولما أزعجني الضجيج الهائل وأدركت أن الحوار داخل المطحنة مثل حوار الطرشان حقاً، خرجت لأقف أمام قنطرتها القديمة فوق غبيط الجعفورة. كانت المياه تنرش مزبدة وتنقذف كمجموعة من النمور الجائعة. أقترب منها دون أن أنزع ثيابي. أترددُ قليلاً، ثم أندفعُ فجأة إلى وسطها وأتلقى زخمها وجهاً لوجه. أضحكُ بنشوة مصراً على عدم الانسحاب، وتضيع كلماتي في هدير المياه. ترتفع أكثر فأكثر ولكنها لاتطفو فوق الهدير. أنفصل عن المياه المنرشة كنمور جائعة، ثم أقتحمها مرة ثانية. أقترب إلى داخل القنطرة، غير أن المياه الشرسة تقذفني هذه المرة فأسقط وتدفعني إلى الغبيط. أفرح فأنزع ثيابي وأنشرها على شجرة الدلب. أتمدد عارياً على صخرة الكدان في وجه الشمس. دمي يسيل. أستسلم لشعاع الشمس. أستسلم مغمضاً عينيّ. يظل النهار متوهجاً. أنصهر بالنور والأشجار والغيوم البيضاء القليلة والشمس والسماء وهدير المياه الذي لاينقطع. المواسم جيدة والطاحون لاتتوقف. تأتي الحمير من القرى محملة بالقمح وتعود محملة بالطحين. أستعيد كياني وأقاوم الانصهار. أود أن أظل مستسلماً مأخوذاً. ليس من أزمة. لِمَ أحس بالجوع يتسرب إليّ من الداخل؟ كيف بدأ يتسرب بهذه السرعة؟ متى هضمتُ وليمة الحمام والعنب وحب الديس؟ أنسى أسئلتي. مثل المياه أتدفقُ إلى المصب بحرية ونشوة. أعبر الأودية الملتوية. ليس من مصبّ نهائي. رحيل أبدي! ما أجمل الرحيل الأبدي دون بداية ودون نهاية. أظن أنكَ تشاطرني هذا الإحساس يا طائر الحوم! هل نحن أسرى عادتنا السرمدية؟

وقبل أن تجف ثيابي، أرتديها وأنطلق إلى البساتين حيث أتوقع لقاء فهيم وسليم وجمال ونايف وجهاد. نقطف أكواز الذرة، ثم نلملم أغصان

الأشجار اليابسة ونكوّمها. أنزع لب شجرة التوت الجاف من بستان إلياس الأخرس، ثم أذهب وأستعير منه صوانة وفتيلة كي نشعل النار ونشوي العرانيس. لُقّب الياس بالأخرس لأنه لايتكلم ولايسمع منذ الطفولة. كان حادّ الذكاء ولايجد صعوبة كبرى في التفاهم مع أهل الضيعة. الكلام الذي يصعب تحريه من الإشارات وحركات الشفاه تكتبه الأصابع في الهواء. تعلم أن يكتب ويقرأ في الهواء. يقول لي بفمه أحياناً وبأصابعه أحياناً أخرى: لماذا لا أراك؟ بستاننا بستانكم. عناقيد الدالية كالذهب في وجه الشمس. تسلق الدالية، اقطف عنباً، وكل قدر ما تستطيع. خذ أيضاً سلة إلى البيت. كان المرحوم أبوك صديقي. صح اختلفنا مرة بسبب خالي. أعرف أنه كان قوياً وجريئاً، ولكنني كنت أعتقد أنني أيضاً قوي وجريء. تواجهنا هنا عند قاطع الساقية، ولا أنكر أنه رماني بسرعة. كنت أقوى منه بالكباش. هو لايكابش. كان جريئاً وسريعاً أكثر منه قوياً. لا يخاف أبداً. لا يتردد. ولكنه لايعتدي على أحد. إن أحداً غيره لم يتغلب عليّ. كان معتدل الطول رفيعاً. كان جباراً وكريماً ومحبوباً من الجميع. في الأفراح كان يلبس جزمته ويلفّ زناره العريض حول خصره ويعقد عقاله وكوفيته بطريقة خاصة ويلف محرمته ويدبك في الطليعة. كان حقاً محبوباً.

ـ وأنت أيضاً يا عمي إلياس.

ـ شكراً. لذلك تصالحنا حالاً. بل منذ تلك المواجهة بدأت صداقتنا الحقيقية، مع الأسف لم تستمر طويلاً. توفي بعد ذلك بوقت قصير. لا أحد يصدق أنه مات، وبهذه السرعة. الموت في الشباب قاس كالصوان. نسيت أن أعطيك الصوانة والفتيلة.

أريد أن تعرف يا إلياس الأخرس أنني أذكرك وأنا أراقب شلالات نهر البوتمك ونفسي من حافة شير شاهق. سمعتُ بأنك تزوجت وأنجبت

أولاداً، وعرفتُ أخيراً بالمأساة التي أصابتك. يؤسفني أنني لم أتمكن من تعزيتك شخصياً. تعرف أنني حتى الآن لا أعرف كيف أقدّم التعازي وكيف أستقر: أعيش بعيداً منفياً وبلا جذور. لا. لا. النفي لايعني أنني بلا جذور. عميقة، عميقة مهما حلّقت غصون شجرة حياتي وابتعدت. أظن أنني سأراك قريباً. وحين نلتقي لن نتكلم عن مأساتك ومأساتي. طالما الحب موجود نتجاوز المأساة مهما كبرت.

بعد أن تفجّرت في نفسي هذه الذكريات (وقد حسبت أنني نسيتها كلياً)، سمعت خبراً أحزنني حقاً. اتصل بي سمير من ديترويت وقال في معرض الحديث «الياس الأخرس أعطاك عمره». يا حسرة، إذن لن نلتقي عندما أزور الكفرون. ليتني كنت أؤمن بحياة أخرى وراء هذا العالم فأعزي نفسي بلقائك بعد عمر طويل. لا أظن أننا سنلتقي بعد الآن. أنتَ، لاشك، تريد أن تكون هناك حياة أخرى كي تلتقي بابنك الذي قتل في عز الفتوة.

فيما يتعلق بي، قد تظن أنني لا أذكر شيئاً من هذه الأمور. صدّقني، اذكرها بوضوح كلّي. كيف ولماذا لا أدري. الضيعة وأناسها وينابيعها، وتلالها وأوديتها وطيورها وطرقها وأزهارها وأشواكها وأحزانها وأفراحها شرّشت في نفسي. لا أحد، لاشيء يقتلعها من نفسي. وكلما ذبلت شجرة حياتي، كلما نبتت شجرة أخرى من جذورها العميقة العميقة.

□ □ □

اهبِط أيُّها المَوت

نتراجع عن حافة الشير الذي يطل على شلالات نهر البوتمك الكبرى ونجلس على مقعد منعزل. يظل دوي المياه الغاضبة يعلو فوق كل الأصوات. أغمض عيني وأستمع لأصوات النهر كما أصغي لموسيقى عاصفة.

أُحدّق بعيني حبيبتي. أحدّق لوقت طويل فتبتسم وتسألني بشيء من الاستغراب: مابكَ؟

ـ لاشيء. لاشيء أبداً. أحاول أن أرحل في عينيك.

تتسع ابتسامتها فيما تعود هي أيضاً تدريجياً من عالم الأحلام. تتحول ابتسامتها إلى تساؤلٍ فاستغرابٍ وتختلط بتطلع ساخر شبه اتهامي (أو هكذا بدا لي): أين كنتَ؟ لست معي.

ـ وأنتِ لستِ معي.

ـ أنتَ لستَ في هذا العالم بتاتاً. يبدو لي أنك تمر في حالة هذيان أو جنون.

ـ أظن أنها حالة شعرية. الشّعر، الشّعر، هل هناك ما هو أروع من فضاء الشّعر؟

ـ فضاء الموسيقى.

ـ كلاهما واحد.

ـ ولكنك غائب عنّي كلياً. خرجنا معاً لنتكلم حول واقعنا. ماذا نفعل؟

ـ أنتِ أيضاً غائبة عني ولم ترجعي بعد من رحيلك.

ـ كنتُ أتساءل متى تكبر وماذا سيحلّ بنا وهل سنتوقف عن الحب. هل سننشغل عن حالنا بحاجاتنا الأساسية؟

إنها تفكّر بأمي. كنتُ قد نسيتها. خرجنا كي ننساها. لذلك أسألك حبيبتي بشيء من الحدّة: هل من الضروري أن تذكّريني بها؟

ـ إنها صورة لمستقبلنا.

ـ وهل من الضروري أن نفكّر بمستقبلنا دائماً؟

ـ لا. أبداً. واحدة من الأفكار التي تعبرالذهن شئنا أم أبينا. يظل الحديث عنها أفضل من الكبت.

ـ صحيح.

وأصمتُ لبرهة ثم ألف ذراعي حول كتفي حبيبتي وأقول: لن نتوقف عن الحب. لن نترك أنفسنا نتجاوز الحدود التي لايمكن بعدها أن نسيطر على حياتنا. أتمنى ألاّ نترك أنفسنا.

ـ كيف ندرك أننا نقترب من الحدود؟

ـ أرجو أن ندرك. لم نختر ولادتنا، على الأقل يجب أن يكون بإمكاننا أن نختار موتنا. وتحتج حبيبتي: أرى حوارنا غريباً.

ـ أنتِ على حق.

ـ من ناحية أخرى نكبت دائماً تساؤلاتنا الحرجة.

ـ نعيش حالة شعرية عابرة. ومادمنا نعيشها لا أجد ضرورة للعودة إلى الواقع والتحليل. لنتمتع بها فقط. كم مرة في العمر نفلت من دورة الواقع.

وأرى الابتسامة الساخرة تضيء وجهها فيما تتوجه إليّ: في حالتكَ

يجب أن تسأل كم مرة في العمر تعود إلى الواقع.

ـ الحلم، الواقع. ما الفرق بينهما؟ ليس هناك حدود فاصلة. ربما كلاهما وجه لحقيقة واحدة.

ـ إذن ماذا تقصد حين تتحدث عن الفجوة بين الحلم والواقع؟

ـ لا أقصد انفصام الحقيقة.

وتقاطعني حبيبتي: الحقيقة؟ ما هي الحقيقة؟ هل هناك مايمكن تسميته الحقيقة؟ وإلاّ ما معنى قولك بالحقائق النسبية المتناقضة؟ ليس هناك حقيقة مطلقة. الغيبيون وحدهم يؤمنون بذلك.

ـ صحيح، ولكن لماذا نعود للتحليل.

ـ لنتحرر من التساؤل حول حياتنا.

دون تساؤل ظللتُ أرحل في عينيها باتجاه الماضي والمستقبل وفي أعماق الحاضر. لن أسألها بماذا تفكر. لو سألتني هي بماذا أفكر هل يمكنني أن أخبرها دون انتقاء ورقابة وتشويه؟ هي أيضاً يجب أن تكون في رحلة خيالية. ترى تتذكر لقاءنا الأول بالوضوح الذي أتذكره؟

تابعتُ رحيلي في فضاء عينيها فيما نصغي لصخب الشلالات. قلت: تذكرين الترتيلة السوداء التي تعلمناها في آن أربور في مطلع الستينات في عز انتشار حركات الاحتجاج في سبيل حقوق السود المدنية وضد حرب فيتنام. وبصوت منخفض ردّدت حبيبتي:

اهبط أيها الموت، اهبط
اهبط إلى سافانا في جورجيا
في أسفل يا ماكرو
وابحث عن الأخت كارولينا

قاست طويلاً في كرومي

وعانت حر الأيام

إنها تعبة

ونكمل معاً:

اهبط، أيها الموت، واحملها إليّ.

وتتساءل حبيبتي: ما الذي ذكّرنا بها الآن؟ مضى زمن بعيد على حركة الحقوق المدنية للسود؟ تراها عاملة المصعد السوداء؟

ـ ربما موت أبي وأبيك، موت طائر الحوم وموت البلاد وأمي.

ـ كنتَ تفكر بذلك؟

ـ وجدتُ نفسي أرحل إلى زمن الطفولة في الكفرون.

ـ وأنا كنت أستعيد الماضي، مع الأسف بضوء الحاضر.

ـ لماذا لانتحرر من الماضي والحاضر؟

ودون أن تجيب، عادت حبيبتي بصوت منخفض مقاطع أخرى من الترتيلة وأنا أحاول أن أرافقها:

لاتذرفوا الدموع، لاتذرفوا

الأخت كارولينا لم تمت

أيها الزوج المكلوم القلب، لاتبكِ

أيها الابن المكسور القلب، لاتبكِ

أيتها الابنة المتروكة المستوحدة، كفاك بكاء

إنها راحلة فقط إلى وطنها.

توّقفنا. أتساءل إذا كان الموت عودة إلى الوطن وأين وطن أمي. أعود

أرافق حبيبتي التي يجب أن تكون قد تذكّرت مقطعاً آخر فاستأنفت ترتيلها الدافئ وقد أشرقتِ الابتسامة في سماء عينيها:

شاهدت الموت الحبيب. شاهدت الموت الحبيب

مقبلاً مثل نجمةٍ تهبط نحو الأرض

ولم يُرعب الموتُ الأخت كارولينا

كأنه صديق تهفو لاستقباله

وهَمَسَت إنني راحلة إلى وطني.

والتجأنا إلى صمتنا المضطرب. كيف ترى أمي الموت؟ هل تراه حبيباً؟ هل تراه منقذاً ونجمة تهبط ونجماً يهبط إلى الأرض؟ هل يرعبها؟ هل تتوق لاستقباله؟ كل ما أعرف أنها تردد باستمرار أن الموت حق وصدق. ربما تحس أننا نتمنى لها أن تموت وترتاح؟ الشيء الوحيد الذي أصبحتُ متأكداً منه أنها مازالت تجيد لعبة بث الشعور بالذنب في نفسي.

أمس طلبت عنباً، فقلتُ لها إنه ليس لدينا عنب في الوقت الحاضر. ورأيتها فجأة تتمدد وتغمض عينيها وترخي ذراعيها جانباً وتترجف قائلة: أريد أن أموت. سأموت. ستندم إذا لم تجلب لي عنباً.

وأضحك من أعماق قلبي. أضحك في هذه الفترة وأنا أسترجع كلماتها ولكن حبيبتي تعيدني إلى الواقع وتقودني مرة أخرى باتجاه الشير الذي يشرف على الشلالات لنستطلع سرَّ تجمع عدد من المتفرجين. وجدناهم يحيطون بشاب وشابة يستعدان للهبوط إلى النهر حيث ينحدر الشير عمودياً. بدت تلك هوايتهما، خاصة الشاب، وهما يملكان أحدث وسائل تسلق الصخور. يُحكمان ربط حبال ملونة إلى جذع شجرة نمت على حافة الشير وانحنت قليلاً لتشرف على النهر تماماً كتينة «الضهر» في الكفرون. ويجب أن يكونا قد أحسا بتزايد تجمهر الناس حولهما فأمعنا في

لعبة التشويق. يدققان بكل شيء وبافتتان ظاهر فيزداد ترقب الناس ممزوجاً بمختلف عناصر الإقبال على مراقبة مغامرة خطيرة. تفحصا انحدارات الشير مرات عديدة ومن زوايا مختلفة، وتدربت الشابة على أسلم طرق الانحدار والتسلق في مكان سليم. وأخيراً، تماماً قبل أن يبدأ القنوط يتسرب إلى الجمهور وينفضّ من حولهما، هبطت الفتاة أولاً بتأن وحذر، ثم تبعها الشاب بسرعة خاطفة. وما أن وصلا إلى أسفل حتى ارتفع التصفيق ووجدت نفسي أصفق مع الآخرين، ولكن حبيبتي ظلت متحفظة فقد رأت اللعبة مجرد مغامرة طائشة من قبل شباب مترف عبثاً يحاولون ملء الفراغ الهائل في حياتهم.

وخطر لي شخصياً أننا اعتدنا أن نسلك الطريق السليمة ونتجنب المغامرات حتى تُفرض علينا فرضاً.

وفجأة، ومن دون استعداد، وجدتُ نفسي أقترب من طرف الشير أبحث عن مكان جانبي سليم للانحدار فتصرخ حبيبتي أن أتراجع. بدلاً من ذلك أتوجه إلى المنحدر الجانبي وأبدأ الهبوط دون حبال أو أية وسائل فنية أخرى غير ما تعلّمته في طفولتي في الكفرون. أنحدر بسرعة ودون تردد قبل أن أترك مجالاً لحبيبتي (أو بالأحرى لنفسي) أن تقنعني بالتراجع. دون وجل انحدرت لملاقاة النهر متجاهلاً صراخ حبيبتي بالعربية وإعلاناً رسمياً ينذر بخطر الموت. بعد أن تجاوزتُ مسافة لاتسمح بالعودة دون إحراج، ترددتُ في أكثر من مكان ولكنني كنت أجد أخيراً موطئاً سليماً أو غصن شجرة أتمسك به. ليس هذا المكان أصعب من صخور نبع الشير في الكفرون ولا عش الشوحة ولامنحدرات جبل السيدة. هذا ما كنت أفعله في الطفولة، فلم الخوف. صحيح أن ابن عمي سقط مرة وفجّ رأسه. المهم أن أترك الأمر لحدس الطفولة. وهكذا كان. حدس الجسد لايخون. أركّز نظري فلا ألتفتُ إلى شيء. أهبط بحذر خطوة خطوة. عبرتُ

نصف المسافة. أصبح المكان أكثر انحداراً. لايمكن الرجوع. أتقدم بشكل متعرج. أعبر ثلاثة أرباع الطريق. تستحيل العودة. إذن لابد أن أقفز بعض الأمتار إلى صخرة مسطحة. أتردد قليلاً. أقفز وأنط مثل كرة حالما تلمس قدماي الصخرة. ألتفتُ إلى فوق لأطمئن حبيبتي فلم تبدر منها أية حركة.

أتقدم من حافة صخرة تدخل قليلاً في النهر. أجلس أصغي للهدير، اراقب التموج، يستقبل وجهي الزبد المتطاير بانتشاء، أتنفس عميقاً،أزفر كل المكبوتات في صدري. ألاحظ جذع شجرة شكّل جسراً طبيعياً إلى صخرة صمدت في وجه المياه المتدفقة آلاف السنين. أتقدم من الشجرة ـ الجسر، أتفحصها للتأكد من ثباتها، أعبرها دون تردد إلى الصخرة ـ الجزيرة، وأجد نفسي محاطاً بالأمواج والصخب. لا أتطلع إلى فوق خوف أن أرى حبيبتي. لم أعد أسمع صراخها الغاضب. وأشعر وسط التدفق أنني أصغي للسيمفونية التاسعة. لأول مرة أشعر أنها تنفجر من داخلي ولاتقبل إليّ من بعيد ومن الخارج. تُولد وتتوثب في أعماقي، تلفّني مثل عاصفة، ألتحم بها وأدخل في جوفها. أسلّم نفسي لتموجاتها، أضيع فيها، تحملني في مختلف الاتجاهات في آن. توحّدنا فانتهى الانفصال كلياً. ما أروع الاندماج الكلي.

أيتها الصديقات والأصدقاء

لنتحرر من الكآبة

ونغنّي معاً نشيد الفرح

في ظلال أسراب الحوم

لنغنّي للفرح الطالع من أعماق الأرض

لنفتح صدورنا للهواء المفعم بالماء

المياه. المياه. المياه

في البدء كان الماء.

فجأة أنفصل، وأتطلع باتجاه حبيبتي فأجدها مازالت تلوّح لي بقلق وتوتر أن أعود وقد تجمّع حولها بعض الناس. أدرك سخف ما قمتُ به. مجنون أنا؟ ماذا أفعل؟ لماذا؟

وأصاب بالخوف فلا أتمكّن من الحراك. لا أستطيع أن أعود لو أردت. بَدَا لي أن عبور الشجرة ـ الجسر محفوف بالخطر. يجب أن أتغلب على الخوف وأعود. لا أتمكن. يزداد الخوف. يتحول إلى رعب. يجب أن أتغلب على خوفي. كيف؟ لا أستطيع. أصرخ في نفسي أن أهدأ. أعود أتأمل التدفق. أصغي لموسيقا تدفق المياه. أندمج في موسيقى النّهر. أستعيد سيطرتي على أعصابي. أنبطح على حافة الصخرة وأصوّب نظراتي إلى المياه المتدفقة نحوي. تقبل شرسة مثل آلاف من النمور الجائعة.

مرة أخرى تخترق ذهني صور قنطرة مطحنة الكفرون. أقترب منها دون أن أنزع ثيابي. أقترب. أتعرض للمياه المتقذفة. أضحك بنشوة مصرّاً على عدم الانسحاب. أغنّي. يضيع صوتي في هدير المياه. يرتفع صوتي أكثر ولكنه لايطفو فوق الهدير. أنزع ثيابي المبللة وأتمدد على صخرة الكدان تحت الدلبة الكبيرة في وجه الشمس. دمي يسيل، أنصهر بهدير المياه وتوهج الضوء.

طائر ضخم يحلّق فوقي. إنه نسر. ليته كان طائر الحوم. مثلك أرحل دون استقرار عابراً القارات. أعبر العالم معرّضاً للقنص. نعم خسرتُ الكثير من ريشي، ولكن ها هو ينمو لي ريش جديد فأحوّم دون وجل فوق الأنهر في مختلف القارات. كم أتوق لأرى الشمس تصعد جمراً متوهجاً فوق مجد النيل المتمدد مثل عرق أخضر في جسد الصحراء.

وأصرخ من الأعماق لعمي يوسف: أفكر بكَ هذه اللحظة بالذات. تقتحم عالمي مثل أبي وأمي وطائر الحوم. أنتَ أيضاً طائر حوم فريد. لن

أنسى يوم كادت أن تجرفك الطوفة. جرفتك إلى حتفك فقفزت من حلاوة الروح متفلتاً من قبضتها وتمسكتَ برسن بغلك الذي كان يكافح لينجو بحياته العزيزة عليكَ كحياة فهيم وسعيد. وعرف البغل كيف يماشي التيار فأنقذك. احتفلنا بنجاتكما حول الموقد. أكلنا جوزاً وزبيباً وملبناً. وأطعمتَ البغل شعيراً بدل التبن هذه المرة. يومها استمعتُ بشغف إلى الحكايات التي رواها جدي سليم عن حوادث طوفة سابقة لم تعرف الكفرون مثلها من قبل ولن تعرف مثلها من بعد. جذور الدلبة الكبيرة العارية في بستان الغرب لاتزال شاهداً على ذلك. نجوت أنت، إنما عشت طويلاً لتشهد موت ابنك سعيد المفجع. في الواقع إنني أضع عليك بعض اللوم ولكنك تصرفت بقدر ما تعرف ولا أستطيع إلا أن أشاركك حزنك. أذكر يوم جئتَ بسعيد إلى بيروت وأخذناه معاً للمستشفى لمعالجة ورم خبيث في ركبته. قال لك الطبيب إن الورم سرطان ولابد من قطع ساقه. رفضتَ رفضاً باتاً وأعدته إلى الضيعة. وسمعتُ فيما بعد أنك لجأتَ إلى من وصف له الكي. أتصور سعيداً يصرخ صراخاً حاداً حين يمس السيخ المحمّى ركبته ويتصاعد دخان احتراقه إلى عينيه. كويتموه مرات دون أن يتحسن. على العكس، ساءت حاله. وأخيراً، لست أدري من اقترح عليك أن يبيت ليلة واحدة بمفرده في مغارة مار الياس. هل حقاً حملتموه إلى مغارة مار الياس وتركتموه يقضي الليل وحده هناك؟ هل نسيتم القصص المخيفة عن هذه المغارة؟ كم مرة، أخبرتمونا حكايات عن رجال شجعان تقبلوا التحدي وذهبوا ليلاً إلى مغارة مار الياس خارج الضيعة فأصيب بعضهم بالجنون وبال بعضهم الآخر في سراويلهم من الخوف؟ كيف تنسى تلك الحكايات؟ كيف خطر لكم أن تتركوا سعيداً الصغير الرقيق في ظلمة المغارة الباردة؟ لذلك لا أستغرب أنكم وجدتموه ميتاً في صباح اليوم التالي. هل حصل ذلك حقاً، لا أريد أن أصدّق؟

وأحسستُ بانقباض وأنا جالس على تلك الصخرة وسط تدفق شلالات نهر البوتمك الكبرى. هل حملتُ نفسي إلى تلك الصخرة كما حمل عمي يوسف سعيداً إلى المغارة؟ أي جنون؟ أي سخف؟

ونهضت دون تردد. عبرتُ فوق الشجرة ـ الجسر إلى ضفة النهر. لم أخف لكثرة ما أردتُ النجاة. ودون أن ألتفت إلى الوراء تسلقت الصخور لأواجه غضب حبيبتي: مجنون؟ مجنون؟ حقاً إنك مجنون. لا أدري ما يحدث لك أحياناً. ماذا تريد أن تثبت؟

لم أجد ما أقوله غير «لا أدري» فهزت رأسها وأسرعت نحو السيارة. وتبعتها بعد أن التفتُ إلى الشلالات أودعها: لو أتحول إلى نهر متدفق مزبد فأتخذ شكل الهواء، لو أحتضن الصخور، لو أنطلق نحو البحر فاتحاً ذراعي مثل جناحي طائر الحوم. لماذا موت سعيد؟ لماذا قُتِلَ طائر الحوم؟

رغم القتل تقبل في مواسمها كالعادة. تقبل أسراباً أسراباً. تحلق كبيرة شامخة مهيبة في مسافات شاسعة بين زرقة السماء وظلال الأشجار في النهر، فيسرع الصيادون إلى بنادقهم الصدئة. وفي برهة تمتلئ السماء بطلقات النار كأن حرباً قد أعلنت ويترنح الريش في الهواء.

تتساقط طيور الحوم واحدة واحدة. ويحملها الصيادون فخورين بإنجازاتهم الخارقة كانهم ربحوا حرباً طال أمدها. لماذا؟ لماذا؟ هل يمكن أن تُفهموني لماذا؟

وأستيقظ سالماً من رحلتي الخيالية، فأسرع لألتحق بحبيبتي. لاتلتفت إليّ. أعتذر. لا تقبل اعتذاري. نتابع رحيلنا باتجاه جبال شننندوه. هي أيضاً تريد أن تتسلق القمم وتحدق بالعالم. نريد أن نرى له شكلاً بدل أن نغرق في هذه التفاصيل التافهة المتراكمة. نريد أن نرى العالم رحباً يمتد في جميع الاتجاهات وبلا وصول. نتسلق قمة بعد قمة فما يغيب أفق حتى يطل أفق أوسع.

كانت حبيبتي ماتزال تحاول الاحتفاظ بغضبها، ولكنها وجدت من المناسب أن تقول بعد عدة محاولات لمراضاتها: من قال لك إنني أريد مشاهدة نهايتك المفجعة؟

ـ ومن قال إنني أبحث عن نهاية مفجعة؟

ـ ما هذا التصرف الجنوني؟

ـ حياتنا ضحلة.

ـ اقول لك لا فائدة من الهرب.

ـ تظنين أنني أحاول الهرب؟

ـ ماذا تسمّي تصرفاتك؟

ـ لا أدري.

ونهرب معاً إلى الكفرون باتجاه جبال شنندوه الشامخة الخضراء.

□□□

حَنِينُ القَصَب

أحدّق إليها مراقباً وجهي في وجهها. ربما ترى وجهها في وجهي. يتحول العالم إلى نهر. كل شيء يتحرك، ينمو، يتموج، يعصف، يتدفق. تتقاذفنا التيارات. تهبط بنا وتصعد. يدخل ملحها إلى أعماقنا.

وأسمع حبيبتي تقول: أنا سأقود السيارة.

ـ لماذا؟

ـ هل يحق لي؟

ـ طبعاً. ولكن أريد أن أعرف لماذا الآن؟

ـ لأنكَ مأخوذ بتداعياتك.

ـ ألفّ ذراعي حول كتفها وأقول: لايهمك.

ـ بلى، يهمني.

تقاطعني جازمة وتضيف: لا أريدكَ أن تقوم بهذه المغامرات البهلوانية في حضوري مرة أخرى. مفهوم؟

ـ مفهوم.

وتوجهنا إلى شنندوه، تاركين وراءنا طقوس الجماهير والشلالات، لنمارس طقوس الغابات والجبال. وتذكّرتُ فجأة الشريط الجديد فقلتُ لحبيبتي: هل أخبرتكِ أن سامي أرسل لي من البرازيل شريطاً لنسيم المسوح؟ التسجيل غير جيد، مع الأسف، ولكن الصوت هو هو كما عرفته في الطفولة. الآن أستطيع أن أحكم على شعره، إنما أكره أن أغتال

الحلم. لن أنظر في شعره. سأسمعه فقط. صوته هائل. حيويته نادرة. روحه ريح في أودية سحيقة في أواخر عمره ترك الضيعة والتحق بأولاده في البرازيل. مات في الغربة. ظل يشرب العرق ويغني حتى تهرأت كبده.

وتدفقت تداعياتي حول المغني الشاعر بحنين القصب:

سهرنا تلك الليلة مع القمر حتى الصباح. لم أعد أذكر المناسبة، ولكن المخاضة كانت عامرة. على الضفة الجنوبية تجمهر عدد كبير من أهل الضيعة حول مائدة حافلة بالمازوات والعرق. نسيم المسوح (أو بالأخرى نسيم النبع كما يفضل أن يلقب نفسه) يسترسل في غنائه العتابا والميجانا والمعنى والدلعونا والناس حوله يصفقون ويتأوهون ويشاركونه الردة بعد الردة. وعلى الضفة الأخرى التفَّ جمهور آخر من الشباب ممن عاشوا في المدن، وأصحابهم، حول جورج الحمصي (واسمه على كسمه) يعزف على العود ويغني أغنيات لعبد الوهاب وفريد الأطرش وغيرهما ممن بدأ الناس يسمعونهم على الراديو في ذلك الوقت.

بدا واضحاً أن هناك تنافساً بين الجماعتين. وكان يخشى أن تنقلب الحفلة إلى عراك. طبعاً انضممتُ إلى جماعة نسيم النبع متضايقاً من صراخ الجماعة الأخرى.

ولكن نسيم لم يكن منفعلاً. على العكس، كان مرحاً واثقاً بنفسه متألقاً كعادته. من أعماق قلبه وبحة نادرة مِثل حنين القصب يتنهد مجروحاً «أو..ف» فيصرخ الجميع من الأعماق «أو...ف». يطلع صوته مثل الشمس من وراء الجبال في الشرق ومثل غيمة تظلل الناس في يوم حار:

يا يابا، يايا با، يايا...با

بُنيّ عالمحبي جرّعيني[1]   ومِن مَنهَل شفاهك جَرّعيني

(١) جرّئيني: (الهمزة تتحول إلى عين باللغة الدارجة في هذه المنطقة) أي شجّعيني.

عيونك سود منهم جرَّعيني   بميل الحب عالأربع هداب

وترتفع الكؤوس والأصوات تجاوباً، ويصرخ أحدهم وقد فتح ذراعيه إلى أقصى ما يمكن «حيا دينك يا نسيم النبع».

ويتبع ذلك بوصلة من الميجانا:

مُـنـعِــش هَــواكِ   يـا روابـي بـلادِنـا

فيردّد الجمهور وراءه:

مـنـعــش هــواك   يـا روابـي بـلادنـا

تهتز الرؤوس طرباً وتصفق الأكف فتنضم إلى حلقتنا جماعة من الفريق الآخر. تتوسع الحلقة وتزدحم فأتسربُ إلى الصفوف الأمامية. كانت المائدة عامرة بكؤوس العرق والمازوات فتذكرتُ جوعي. مَسْمَرني الخجل في مكاني، ولكن نسيم أومأ لي فتقدمتُ نحوه بتردد. غمس قطعةً من البندورة بالملح وقدّمها لي، وأجلسني قربه. احمرَّ وجهي خجلاً واعتزازاً، وتمنيتُ لو أن صديقتي الصغيرة كانت حاضرة. لا أدري لماذا فكّرتُ بها تلك البرهة. لا أظن أنني كنت بحاجة أن أُثبت لها أي شيء. لابد أن أكون قد أثبت نفسي في بستان الذرة. إذن، أردتها أن تشاركني فرحي الهائل!

ويتنهد نسيم النبع من الأعماق مرة أخرى. يطلع صوته متدفقاً مجلجلاً:

يا يابا، يا يابا، يا... يابا   يا يابا، يا يابا، يا... يابا

حبيبي هات أوتارك وعُودَك   وغنّي لإخوانك وُعُودك

الظرف ربّاك يا شاعر وعوّدك   على عزف الناي وحنين القصب

وتتصاعد التأوهات، فيسترسل بوصلة من الميجانا بعد أن يصب في

جوفه كأساً من العرق، ويتوجه إلى مطربية[1] جميلة كانت تجلس قربه:

هدّي خيامَك وارحلي عجرودنا

وتردّد هي مع الجمهور:

هدّي خيامك وارحلي عجرودنا

يدق كأسه بكأسها ويتأوه واضعاً كفه على كتفها:

يابا، يا يابا، يا.. يابا

إذا صيّفت بقمة جردنا   إلك لحم الصدر فوراً جَرَدنا

وبصدر ما نخاف من لما جَرَدنا   رمح يدق سِنوّ بالكعاب

ويصرخ الجمهور من الأعماق فيتابع دون توقف بوصلة من الميجانا:

لولا الهوى ما صار ابوكِ عمنا

ويردّد الجمهور الوصلة مصفقاً، فيقف ويشاركهم التصفيق متنقلاً بين جوانب الطاولة مشجعاً على المشاركة في الغناء:

وعَوَايدنا كَرَام الضيف   مهما الدهر علينا يجور

أيضاً يردّد الجمهور ذلك البيت وراءه، فيكرره هو مرة ثالثة حتى إذا ما أحس بالاندماج الكلّي تابع:

يا ماشربنا السَلوى ومَن   وقَلبك قاسي ما بيحن

هالمرّة منعبي الدن   ونشرب من خمر الحاكور

ويشارك الجميع مبتهجاً فيما يصفّق معهم وينتقل بحركات رشيقة:

وعَوَايدنا كَرَام الضِيف   مهما الدهر علينا يجور

---

(١) يشار إلى الغجر أو النّوَرْ بالمطاربي في هذه المنطقة لأنهم يزاولون الطرب فيشار إلى الغجري أو النّوري بـ«مطربي» وللنّورية بـ«مطربية».

وينتقل إلى مقطع آخر، ابتهجت له المطربية بشكل خاص:

عـوايـدنـا شـد الخيـل ونرمي العدى بذِل وويل
ما منخاف نهار وليل وكل ماشق علينا النور

وما ينتهون من الردة حتى يُلحقها بوصلة أخرى:

دِرع مـزرَّد يـا حـبيـب مننسِج من غزَل داوود
مِنرَعِّي النَعجِة والذِيب ومننظُم معنّى على المرصود
الليلي ليصيح الديك
قَمَر شق من الديجور

ويتعالى التصفيق فينضم إلى الحلقة عدد من الفريق الآخر. ويشير نسيم إلى راعٍ أن يلعب على مجوزه، فيقفز وسط الساحة ويشكل الشباب والشابات نصف حلقة من الدبكة.

وأجد نفسي أراقب المنظر بشغف قرب صديقتي الصغيرة التي كانت قد حضرت فجأة. أعلّمها خطوات الدبكة فيما تُعلّمني أسرار العشق عند بزوغ الحياة.

وتَعبَ الراعي والشباب فالتجأوا مرة أخرى إلى نسيم النبع الذي وضع كفه على خده وتأوه دون تردد:

يـابـا يـابـا، يـا... يـابـا
أنا برخّص بحالي وإنت غلّيت وأنا برّد غليلي وانت غلّيت
وأنا بخمدْ حِسامي وانتْ
غـلّـيـتْ سنان الرمح بصدور العِدى

ويتبع ذلك بوصلة ميجانا: عليّ يا جناحي واهبطي بديار حبابنا.

ويستمر الغناء متأخراً في الليل متسللاً مثل الخَدَر إلى مخابئ غامضة

في أعماق النفس. في الأوقات المناسبة يتنقل نسيم النبع بين أحواض العتابا والميجانا والزجل. مرة أخرى يحدق بالمطربية الجميلة ويتوجه إليها:

فيكِ تِسحريني شب وشايب وفيكِ عالشباب ترجّعيني
فيكِ تجعليني قُوم حارب وفيكِ عالأعادي تنصريني
فيكِ تجعليني شمع دايب وفيكِ بالمزاز تشغّليني
فيكِ تجمعيني بالحبايب وفيكِ من حبيبي تحرميني
فيكِ تعمليني قَمَر غايب وفيكِ بالصباح تطلّعيني
فيكَ تعمليني ثلج دايب وفيكِ بربع تكي تجلّديني

واستمر الغناء إلى أن خدّر العرق العقول وتعبت الجفون. تفرّق الناس بعد أن تأبط جميل ذراع الشاعر وحمله إلى بيته. أما نحن الأطفال فبقي بعضنا عند النهر ينتظر غياب القمر. ولعبنا «لِمْ الريش» ودبكنا فكانت أقدامنا الحافية تضرب الأرض بتحد. ومناديلنا تدور في وجه السماء بانتشاء وكبرياء. وقبل أن يتسلل الصباح لجأتُ إلى العرزال الذي صنعه والدي من الغار ونمتُ لحظة أسندتُ رأسي إلى المخدة.

□ □ □

المَوتُ في المَنفَى

عندما انتهى الشريط علّقت حبيبتي أن صوته جميل ولكن شعره عادي. وأرادت أن تسمع موسيقا كلاسيكية في الوقت الذي كنتُ أود أن أسمع عزفاً على المجوز فنظل في أجواء حنين القصب. وكان ما أرادت، ولكن ذلك لم ينتشلني من الأجواء التي كنت أعيش فيها. بصمت توجهتُ إلى روح نسيم أعبّر عن امتناني إليه وحزني على موته في الغربة وعن أسفي أنه مرّ يودّعني فلم يجدني.

شكرته على بيت عتابا اقترن في وعيي بموت أبي فردّدتُه بصوت كئيب حتى كدت أصل إلى شفير البكاء:

بكيت ويوم تَوديعك نُحت فيه　　　وقلبي صخر إزميلك نَحَت فيه

وطيفك لو أتى زائر نحتفي فيه　　　بعواطف مِثل قطرات الندى

أقول لك يا نسيم النبع إن هذا أجمل شعرك، ولكنك أنت أجمل من شعرك. متَّ وبقيت الأسطورة. ترى من أجل ذلك كنتَ ترفض أن تنشر شِعرك وأن تسجّل صوتك؟ التسجيل الذي أملكه جرى سراً، لابد. أؤكد أنك كنت تعرف بحدسك أن الحقائق تقتل الأسطورة. تكفينا الحقائق القليلة التي نعرفها. نحبك كما أحببناك في الطفولة. إنني أعتز بالأبيات التي كتبتها لي، عندما لم تجدني، على دفتري الذي ضم مجموعة من قصصي الأولى؟

نفحات نسيم النبع إلى حليم تقاطيع زجل:

يا حليم ويا كريمه ويا عليم اسمع دُعَاء البائِس المضنى نسيم
امنح خيالَك من علو قبة سماك ويسبق خليل جبران بن خبي حليم
يا إلهي ما إلي فعلاً سواك إنتَ الحكيم إنتَ العليم إنتَ الرحيم
إنت الحكيم إعطيه كافة حكمتَك وأنتَ المُرّبي ونَحن نَعرِف تِربتك
واجعل حليم يكون جانب كرستك تنتبعو ونشوف خطُّ المستقيم
تنتبعوا ونقرأ حكايات وقصص بالمدارس كلما رنّ الجرس
حتى عصافير اللي ضِمن القفص تغرّد تغنّي من أناشيد الحليم

يا نسيم النبع أخجلتني فعلاً وقد أخفيتُ هذه النفحات حتى الآن. أسجّلها لأنها نفحات منك وإن لم تكن لي أية علاقة بها وليست على مستوى شعرك كما أتخيله. الكتابة ليست سبقاً. أعرف أن الزجل كما يمارس «مكاسرة» و«مقاولة» و«مبارزة». أقول لك إنني بدأتُ الكتابة تحت تأثير جبران. كان هو بداية الطريق، ولكنني اخترتُ طريقاً آخر. ثم يا نسيم أنت تعرف أنني لست إنساناً متديناً فلا أبتغي جنة ولا أؤمن بوجود خط مستقيم، بل بخطوط متقاطعة، ولكنني أؤمن بتغاريد العصافير في القفص. نحن جميعاً نغرّد في القفص. نريد أن نتحرر من الأقفاص، أن ننطلق في الأجواء الفسيحة، أن نحلّق فوق القمم والأودية، أن نعبر الآفاق، وأن نموت قبل أن تنكسر أجنحتنا، وأن نبقى أسطورة. هل غنيت طائر الحوم؟ مثله رحيلنا الدائم وموتنا. تعلمنا منه فنون التحليق والتشكل. رفيقنا هو والأشجار والأنهر وقمم الجبال.

أخاف يا نسيم أنني بتسجيل هذه الحقائق القليلة من بحرك، قد أسهمتُ في اغتيال الأسطورة. لماذا أصرُّ على نشرها؟ لا أدري. اغفر لي. لو أستطيع أن أسمع الناس صوتك ربما غفروا لي ذنوبي. زرتُ النبع هذه السنة ولم أجد قبرك لأضع عليه باقة زهر. في أي عالم من أرض البرزايل

الواسعة دفنوك يا نسيم النبع؟ وهل يدفن النبع؟

أكاد أصل إلى شفير البكاء. وضع محزن حقاً. بالنسبة لي، لم أبكِ منذ زمن بعيد. أظن أنني تجاوزتُ مرحلة البكاء. آه من القهر. أن تكون في حفرة رطبة وحدك ودون وعد بالخلاص شيء يمزق قلبي. أحس بألم داخل دماغي وفي صدري ومعدتي. تعبنا من الهجرة. جسدك منفي في أميركا الجنوبية وأنا في أميركا الشمالية. لو نرشق وجهينا بمياه نبع الشيخ حسن يا نسيم النبع. يجب أن نكون هناك عندما يُقبل طائر الحوم كي نحميه من بنادق الصيادين. أمس قرأت خبراً غريباً. فتاة أميركية مثالية ذهبت إلى بحيرة في وسط غابة كي تحمي البط والإوز من الصيادين الذين يجرجرون الطيور البرية المقتولة على الطريق تاركة دمها على الثلج. اقتربَت من الصيادين وتكلمت معهم بهدوء عن جمال الطيور وبراءتها وتناقص أعدادها سنة بعد سنة.

وعندما انتهت من كلامها، قال لها أحد الصيادين إنها تكسر القانون وإنه سيطلب توقيفها إذا لم تتوقف عن إزعاجهم.

ولم تتوقف معلنة أن لها الحق أن تدافع عن الطيور كما لهم الحق بقتلها. ودعا الصيادون الشرطة فحضروا تواً وقبضوا على الفتاة مكبلين يديها وراء ظهرها بعد أن أفهموها بأنها كسرت قانوناً ينص على عقوبة خمسمائة دولار أو حبس تسعين يوماً. ممنوع حماية الطيور يانسيم النبع، وممنوع على المثاليين أن يعبروا عن رأيهم بشكل يزعج الصيادين. هل سمعت أنه يمكن أن يكون هناك قانون يمنع الاحتجاج ضد القتل؟ أطمئنك أن الفتاة الأميركية ستعود هذا الشتاء للبحيرة وسط الغابة لتؤكد على حقها بالاحتجاج وشطب هذا القانون الجائر الذي يحمي المسلحين من العزل. ليس عندنا قوانين. عندنا سلاطين.

إسمع، أريد أن أخرج من هوة الحزن. أسعى أن أحلّق في أجوائك.

إنني الآن أخرج من الهوة. أردّدُ في أعماقي بصمت ردّات الميجانا التي طالما ردّدُتها وراءك جماهير الضيعة والقرى المجاورة:

مُنعش هواكِ يا روابي بلادنا
يحيا الزمان اللي جمعنا ولمّنا
لولا الهوى ماصار أبوك عمّنا
عَليّ يا جناحي واهبطي بديار حبابنا

أرجوكَ، اغفر لي يا نسيم النبع. من ناحية أخرى أحب أن أصارحك بأنني محسود من المطربية لأن نفحاتك إليها أجمل من تقاطيع الزجل التي كتبتها على دفتري. مهما كان تظل أفضل من تلك القصص الأولى التي لن أنشرها. لا أفهم كيف فاتك أن تغنّي قصيدة لطائر الحوم الذي كان يعبر بريئاً شفافيات سماء الكفرون.

□□□

قِرَاءَةُ الغُيُوم

نتجوّل في ممرات جبال شنندوه الضيقة المتشعبة وسط غابات كثيفة ملونة. ألوان مشعة متجانسة تحتار هل تتسارع لتكتشف مزيداً منها أم تجلس وتتأملها دون شبع. تأخذنا الألوان حيث شاءت وبالسرعة التي تريد. أشجار صفراء، حمراء، نبيذية، خضراء صفراء معاً، ذهبية، عنابية، خمرية، برتقالية، رملية، قرمزية، ألوان متوهجة، مشعّة، حامية، باردة، متموجة، صاخبة، ساكنة، متداخلة، نقية، صافية، ذابلة، حية.

نتجول وسط الغابات دون هدف، نتوقف لنراقب غزلاناً تحررت من الخوف واعتادت الناس، نقترب منها على مهل فتنتصب أذانها في الهواء وتتسع عيونها. أقتطع طرف غصن طري وأقدمه لغزالة اقتربت منا مع ولديها. أتقدم منها خطوتين. لاتهرب. أتقدم أيضاً. تمد رأسها وتقضم الغصن، لاتعاود الكرّة. تتذكر حبيبتي أن لديها فستقاً فتضع حبات منها في راحتها وتقدمها للغزالة فتنحبس أنفاسنا دهشة أن جسراً يمكن أن يمتد بهذه السهولة فوق أودية من الخوف والشك.

وتابعنا تجوالنا باتجاه قمة جبل «ستوني ـ مان» متوقفين بين برهة وأخرى لنتامل لوناً أو حيواناً أو شجرة فريدة أو مطلاً أو منظراً ما. وصلنا إلى القمة متعبين (وبعد وقت طويل) فوجدنا أنفسنا مرة أخرى نشرف على عالم رحب مزهوٍ بنفسه يقبض علينا من الداخل فنغرق في تأملات تجاوزت كل الأبعاد المألوفة.

أثقال العالم تتهاوى فنتحوّل إلى طيور وغزلان وأشجار مأخوذة بألوانها

وأوراقها مترنحة وشمس محجّبة بغيوم شفافة باردة تسرح في المدى الرّحب متخذة الجهات الأربع مدفوعة برغباتها الخاصة.

نجلس فوق صخرة كبيرة مشققة ونشرف على عالم بلا حدود. هل للكون حدود؟ ماذا وراء ملايين السنين من الضوء؟ كيف يمكن الا تكون هناك حدود؟ هل هناك أي شيء لاينتهي؟ هل ينتهي المكان؟ هل ينتهي الزمان؟ أين البداية؟ هل يعقل ألا تكون هناك بداية؟ أين النهاية؟ هل يعقل ألا تكون هناك نهاية؟ ربما العقل، وليس الوجود هو الذي يملك حدوداً وبدايات ونهايات.

أقول لحبيبتي التي جلست هذه المرة قربي على حافة الشير: في طفولتي كنت أتسلق جبل السيدة كي أراقب أطراف العالم البعيدة، وألمس السماء التي كانت تتهرب مني كلما اقتربت من القمة. كنت أتسلق الجبل علّني أرى البحر فأجده دائماً متشحاً بالغيم والضباب. وفي جبل السائح كانت أشجار السنديان الكثيفة تحجب عني الكون برمته فأغور في شرايين الأرض مع الجذور.

ـ أنت أسير مقارناتك. انسَ الكفرون. إنها المرجع لكل شيء في مخيلتك في هذه الأيام. هذا الجمال أمامك يستحق أن تقدّره لذاته. كل جمال هو شيء خاص. وكل علاقة به يجب أن تكون خاصة لا قبل لها ولا بعد. أبدأ علاقتك بهذه المناظر منها وبها.

ـ لو كان الأمر بهذه السهولة.

ـ طالما تصرّ أن تجعل الكفرون المرجع، لن تتمكن أن تبدأ علاقات جديدة وترى نوعاً آخر من الجمال. ولو كنتَ منصفاً ستقودك مقارنتك إلى إعادة النظر. تأمل هذا المنظر، ليس في الكفرون مثل هذا الجمال.

ـ لكلٍّ جماله الخاص.

ـ اعترف بالحقيقة. تحرر من الذاتية وهذه الرواسب.

ـ الذاتية لايمكن. أما ما تسمينه رواسب فأسميه جذوراً. لذلك أحببتُ شجرة الصفصاف. ليس لأنها تبكي وتهبط دموعها إلى النهر فتحدث دوائر تتلاشى في بعضها. وليس فقط لأن رؤوس أغصانها المتدلية ترسم أعيناً متتابعة على سطح الماء كلما حرّكها الهواء. أحبّ شجرة الصفصاف لأنها تنكفئ على ذاتها وجذورها. كلما كبرتُ في العمر، انحنت أغصاني نحو جذوري.

ـ ستنتهي سلفياً.

ـ لا سمح الله. هناك انتماء جامد وانتماء متحرك. لا أستطيع أن أتحرر من الصفصاف الذي شرّش في نفسي.

ـ والذاتية! أنت تعتز بجمال الكفرون. الأميركي يعتز بجمال أميركا.

ـ له مطلق الحق. وهو على حق.

ـ جاؤوا إلى العالم الجديد من مختلف أطراف العالم القديم وبنوا مجتمعاً متقدماً. بنوا مجتمعاً جديداً لأنهم بدأوا حياة جديدة غير مثقلين بالتراث والمؤسسات خصوصاً ذلك التراث الذي ترسّخ في عهود الجهل والفقر والاضطهاد. اقتلعوا أنفسهم من مجتمعاتهم السابقة ولم يلتفتوا إلى الوراء، فأصبح بإمكانهم أن يبدأوا أنقياء. طبعاً لم يتحرروا من كل موروثاتهم. جاؤوا جياعاً وولّد الوضع الجديد جشعاً في نفوسهم. توفرت أمامهم فرص لاتحصى فعمّت الانتهازية. هم إحدى ظواهر بدايات الاستيطان الاستعماري. ما فعلوه بالهنود ثم السود عار تاريخي.

ـ وهم في هذه الأيام يُكملون التمدد الأوروبي لقهر العالم والسيطرة عليه. أنتِ على حق في أن هذه المسافات الشاسعة من الأرض الخصبة ولّدت جشعاً إضافياً. التوجه غرباً ريادة ولكنه أيضاً غزو بالبنادق دون سلطة ووازع. رسموا حدوداً لأرض بلا حدود وقالوا هذه ملكي الخاص وكتبوا (ممنوع الدخول). قتلوا الهنود مرتين. مرة برصاص بنادقهم، ومرة برسم

صورة سلبية لهم كي يسوّغوا القتل. رسموا الضحية قاتلاً معتدياً متوحشاً متخلفاً، ورسموا القاتل المعتدي ريادياً طموحاً بريئاً متقدماً متديناً. لايزال الهندي مطارداً محاصراً حتى الانقراض. وعندما كوّنوا مجتمعاً قوياً توجّهوا إلى بقية العالم تماماً كما فعلوا في توجههم غرباً في أميركا. في هذه الأيام يقتلون العالم الثالث مرتين كل برهة. علاقاتهم بأرضهم والهنود والسود والعالم الثالث وحتى الفضاء هي علاقة قهر وسيطرة ومطاردة وحصار واستغلال. نحن الآن في أوج هذه المرحلة. الصورة التي رسموها للهنود ثم للسود يرسمونها الآن للعالم الثالث. لذلك يصنف الرئيس الأميركي الحالي الدائم الابتسام العَالَم إلى عَالَم بربري وعَالَم متحضر فيسوّغ الاعتداء والقتل. من مفارقات الزمن أنه يعتبر نفسه متحضراً.

ـ تبسّط الأمور كثيراً.

ـ ربما. ولكن كلما حاولتُ أن أعيد النظر بقناعاتي، أجد مزيداً من الأدلة على صحتها.

ـ افتح قلبك لجميع أنواع الأدلة.

ـ صدّقيني، أحاول.

ـ تحاول، ولكنّكَ لاتستطيع.

ـ الشيء الذي لا أستطيع أن أتجاهله ما أراه من علاقة بين الهوس الأميركي بالـ «دايت» والجوع في العالم الثالث. أبوك، رحمه الله، رأى بوضوح أن جميع أنهر العالم تصبّ في المحيط الأميركي. رأى ذلك بحدسه الخاص البسيط.

ـ تعرف أنه كان يقول ذلك باعتزاز.

ـ صحيح، إنما المهم الحقيقة التي تبيّنت له بوضوح. موقفه هذا شيء آخر.

ـ موقفه مهم أيضاً رأى أميركا بلاد الفرص فقاسى كثيراً في سبيل أن

يجلب العائلة إليها.

ـ أيضاً صحيح، ولكن هل يمكن أن نتجاهل هذه العلاقة الواضحة بين التخمة في أميركا والجوع في العالم الثالث؟ أميركا تسيطر على اقتصاد العالم. تستغل موارده وطاقاته مدفوعة بجشع لاحدّ له.

ـ ما تتكلم عنه هو علاقة القوي بالضعيف في كل مكان وزمان، بما في ذلك العالم الثالث. الطبقات الحاكمة هناك أكثر جشعاً وتخمة.

ـ تماماً. والمتخَم هناك متحالف مع المُتخَم هنا.

ـ الضعفاء مشتتون. أقسى الحروب وأكثرها عبثاً تلك التي يمارسها الضعفاء فيما بينهم وضد بعضهم بعضاً. يبقى السؤال: لماذا تعيش هنا وليس هناك؟

ـ تعرفين أنني أكثر قسوة في نقد بلادي.

ـ لماذا هذا الحوار في هذا الوقت؟ لنتمتع بهذا الجمال ولننس قسوة العالم. أكيد ليس عندك مواعظ أخرى؟ صرّح بها الآن. لا أريد أن نعود إلى الموضوع بعد دقائق. فرّغ جعبتك. لماذا تهرّبتَ من السؤال؟

ضحكتُ بحرج، فكرت أنني حقاً تهربتُ من السؤال. ولكنني كنت مشغولاً بفكرة أردتُ أن أحدّثها عنها لمدة فاستأنفتُ متردداً: أعتذر، سأغير الموضوع. إنما تخطر لي فكرة هذه الأيام وأريد رأيك.

ـ فكرة واحدة.

ـ فكرة واحدة، أعدك.

ـ هات، خلّصنا من ثقالة الدم.

توقفتُ أستجمع أفكاري وقلت متردداً أيضاً: أفكر منذ مدّة أن في المجتمع الأمريكي نزعة قوية للتأكيد على أهمية الكَيف أو «البسط» ولكنه «كيف» دون سعادة. إنه مجتمع «كَيف» دون سعادة. وهو مجتمع كَيف

بمعنى آخر لأن الأميركي يسأل دائماً كيف يفعل شيئاً ما وليس لماذا يفعله. تنتهي كلمة «لماذا» في الطفولة وتحل محلها كلمة «كَيف». كيف تصبح غنياً؟ كيف تنجح؟ كيف تتمتع بالجنس؟ كيف تغازل زوجتك؟ كيف تكون سعيداً؟ كيف تغير زيت السيارة؟

ـ انتهيت من عرض فكرتك؟

ـ انتهيتُ ولوقت طويل.

ـ نشكر الله. هل تسأل أنتَ «لماذا» دائماً؟ هل يسأل العرب لماذا؟ كم هي المكبوتات والمحرمات العربية؟

ـ عديدة لاتحصى.

نعود نتأمل انحدارات الجبال وتمازج ألوان أوراق الشجر والسهول الخضراء والغيوم البيضاء في أقصى الغرب تتخذ أشكالاً مثيرة. اضطربتُ فقد تذكرتُ الانسحاق تحت أثقال الماضي، تذكرت الأمر والنهي فأحسست بالرعب رغم المسافات.

أقول لحبيبتي: في صغري كنا نجلس أمام بيت جدي في رأس التلة ونتأمل أشكال الغيوم في الغرب ونتساءل فيما بيننا ماذا نرى فيها. يقول جدي أرى أسداً يتصارع مع نمر، وتقول جدتي أرى فتاة تملأ جرة. وأقول أرى حصاناً جموحاً رمى فارسه. وتقول عمتي فهيدة أرى حقلاً من القطن، وهكذا. وعندما تتخذ الغيوم أشكالاً جديدة نعود نقرأ أبجديتها. الآن أدرك أننا كنا نُسقط أنفسنا على الغيوم ونراها بعيون داخلية لم نكن نعرف أننا نملكها. لنقرأ غيوم أميركا. ماذا ترين فيها؟

ـ أرى غيمة وحيدة مستوحدة.

ـ أرى خريطة متحولة تظهر تداخل البر والبحر.

ـ وأرى فتاة يطاردها شابان.

ـ أين؟

ـ هناك في ظل الغيمة السوداء.

ـ أرى امرأة عارية لها ثلاثة أثداء.

ـ أرى دباً أبيض.

ـ وأنا أرى دبّاً أسود. أعتقد أنها ستمطر. ما رأيك أن نعود؟

نبحث في طريق عودتنا عن الغزلان والأرانب و«التشبمنك» ونتدارك الأمكنة الكثيفة التي يمكن أن نواجه بها دباً شرساً. ورافق ذلك بحث داخلي خاص فسألتني حبيبتي: تريد أن تسمع حلمي الأخير؟ منذ الصباح وأنا أحاول أن أتذكره.

ـ انتقلنا من قراءة الغيوم إلى قراءة الأحلام؟

ـ قراءة الغيوم هي التي ذكّرتني بها. أحلامي دائماً شديدة الغموض. أكثر غموضاً من الغيوم. ثم إنني أنساها بسرعة.

ـ أحلامك دائماً ممتعة.

ـ ومزعجة أيضاً. حلمتُ ليلة أمس أنني أقمتُ «كونسرت» في قاعة كبيرة. عرفت أنني غير مستعدة ولا أعرف حتى كلمات الأغنية. فكّرتُ أن أخترع كلماتي الخاصة وأن أخدع الحضور كي أجمع مالاً. طلبتُ إلى عازفة البيانو أن تعزف، ورحتُ أغني: كان بإمكاني أن أرقص طيلة الليل. وجدت صوتي أفضل مما توقعت. ولكنني لم أجد الكلمات المناسبة فبدأ الحضور يتركون القاعة، ووجدت نفسي وحيدة. ومع ذلك تابعت الغناء فبدأتُ أجد الكلمات، وعجبت أنها كانت جميلة معبرة، وتحسّن صوتي.

ـ الآخرون رقابة. هناك أقنعة لأن هناك آخرين. حلم هائل.

أغرقنا في تفسير حلمها. بين الجد والمزاح اتهمتُها بأنها تحب المال، وأنها تسعى لإرضاء الآخرين من ناحية، وأنها تحب الوحدة والتحرر من

ناحية أخرى. وقبل أن تدافع عن نفسها قلتُ: لأخبرك إذن حلمي الأخير:

ـ حلمتَ أنك تطير؟

ـ لا. لا. ليس هذه المرة. حلمتُ أمس أنني تركت عملي المضني.

وقاطعتني: عملك مضن؟ ماذا تقول عن عملي؟

ـ بلا مقاطعة. من دون شيء أنسى أحلامي. حلمتُ أنني تركت عملي وسبحت إلى جزيرة نائية أبحث فيها عن أحصنة برية تجوب العالم الرحب بحرية تامة. وكنت أخاف فيما أسبح أن يعترضني قرش ويقضم ساقي. طال الخوف بقدر ما طالت السباحة. اعترضتني أمواج صاخبة فوجدتُ نفسي أبتعد عن الجزيرة بدل أن أقترب منها. ولكنني عدت أسبح. القرش يقترب. أغمض عيني وأستسلم منتظراً أن يلتهمني القرش. لايصل. لايلتهمني. أعجب لذلك. أفتح عيني وألتفت إلى الوراء. أعجب أنه اختفى. أتابع السباحة إلى الجزيرة. أتسلق تلة وأشرف على سهول مترامية الأطراف. وفجأة أشاهد قطيعاً من الأحصنة البرية يسرح في فلاة واسعة. راقبتها تجمح في مختلف الاتجاهات دون هدف، تتناكح دون خجل، تتسابق دونما رغبة في الربح أو الخسارة. راقبتها لزمن طويل ففرحتُ فرحاً جارفاً. لا أدري كيف انتهى الحلم.

ـ يجب أن تكون وجدتَ فيه حياتك الضائعة.

ـ أظن أنني أدركت في الحلم أنني مدجّن... فقد رحتُ أتذكر المهر الذي كنته في الكفرون حين أركض في الجداول والسواقي فتنرش المياه عن يميني وشمالي وتبلل وجهي وشعري.

ـ يجب أن يكون للحلم علاقة بالأخبار التي سمعناها قبل أمس في التلفزيون عن مطاردة الأحصنة البرية في ولاية «وايومينغ» والقبض عليها وتسليمها لرعاة البقر في سبيل تدجينها أو بيعها للذبح.

ـ يجب أن يكون هناك علاقة. أزعجتني مطاردتها بالطائرة المروحية حتى ترهق فيقبضون عليها ويسلمونها غنيمة لرعاة الأبقار أحفاد رواد الغرب.

ـ صمت. لم نجد حبيبتي وأنا ما نقوله. ظننتُ أن للصمت علاقة بهذا الحلم ـ الكابوس، الذي رويته. لذلك وجدت نفسي أحاول تغيير الجو فقلت: لأخبركِ آخر نكتة سمعتها.

ـ هل عندك نكتة لم تخبرني إياها مرات من قبل؟

ـ صحيح أخبرتك إياها. تذكرتُ الآن أنك لم تضحكي. لأخبرك إذن إحدى مهازل حياتي.

ـ هذا شيء مضحك لابد. هات.

ودون تردد قلتُ: في صغري، ربما في الخامسة أو السادسة من عمري، أرسلني والدي إلى دكان عبد الله نصار لأشتري له رطل شعير للبغل. في طريق عودتي زلقتُ فانكب الشعير بين الحصى والتراب. جمعتُ بعضها وطممت ما تبقى في التراب خوفاً، وعدتُ إلى البيت أتلفّتُ في جميع الاتجاهات. ولما تناولها أبي فوجئ وراح يروزها. ودون أن يسألني شيئاً حمل الكيس وتوجه غاضباً نحو دكان عبد الله فاختفيتُ. ولما عدتُ متأخراً وجِلاً، عرفت أن أبي عاتب عبد الله فاستغرب ولكنه اعتذر ووزن له رطلاً وزاد عليه حفنة، كحبة مسك. وسألتني حبيبتي متهمة: لم تخبر والدك بالحقيقة؟

وأردت أن أنكر ولكنني وجدت نفسي أقول: لا.

ـ جبان.

ـ ومدجّن إذا أردتِ. لذلك لم أنسَ هذه الحادثة. سترافقني إلى الأبد. نادراً ما أنسى ذنوبي. هل تذكرين ذنوبك؟

ـ لا أذكر شيئاً منها. يجب أن أكون امرأة بلا ذنوب.

ـ تزوجتُ امرأة نقية.

وضحكت ضحكة قوية ومتواصلة. خطر لي أن أسألها عن سبب ضحكها هذا، وربما عن بعض ذنوبها، ولكنني لم أجرؤ. تابعنا السير لوقت دون أن يقول أحدنا شيئاً للآخر. أفكر بأمور عديدة، ولابد أن تكون هي أيضاً تفكر بأمور عديدة. تصطخب في ذهني تداعيات لا أعرف كيف ولماذا تتوالد، وما علاقتها بعضها ببعض. صور من الماضي حسبتُ أنني نسيتها كلياً تستيقظ في نفسي كما تشقّ النباتات قشرة الأرض في يوم مشمس بعد مطر غزير.

ومادمنا نتكلم عن الذنوب أذكر أنني أنزلتُ أختي عنوة من الأرجوحة التي نصبتها أمي لنا داخل البيت، فراحت تبكي. ولكنها كفّت فجأة عن البكاء عندما أنزلت أمي طنجرة شوربة العدس عن النار ووضعتها على الأرض لتنصرف إلى عمل آخر. جلست أختي فوق الطنجرة تراقبها والهبلة لاتزال ترتفع منها. لا أدري كيف فقدتُ سيطرتي على الأرجوحة، فاصطدمتُ بأختي فوقعت وغطست يدها بشوربة العدس الساخنة.

تراكضت أمي ومسّدت الشوربة عن ذراعها، فانسلخ جلدها. حَمَلَتها خارجاً تبكي وتولول طالبة المساعدة. لا أزال أرى جلد أختي في كف أمي حتى الآن، رغم أن الحرق لم يترك أثراً.

نراقب ألوان الأشجار. نلتقط بعضها وهي تتساقط مثل ريش طائر الحوم بتردد متموجة مع النسيم. أوراق صفراء، حمراء، نبيذية، عنابية، رملية، قرمزية، ذهبية. تهبط مثل الموت في عالم المتعبين. أوراق مشعشعة متوهجة تقاوم السقوط فتترنح في الهواء إلى أن تلامس التراب برفق. هل يمكن أن يكون موت الإنسان مثل موت أوراق الشجر في الخريف؟

□□□

مخول وأسكِس

كأوراق الخريف وريش طائر الحوم، قاوم أبي السقوط. منذ تلك البرهة وأنا ملاحق بسقوطه. وكلما سمعتُ ارتطام جسده، ركّزتُ تفكيري محاولاً تبيان ملامحه.

كان وجهه نحيلاً وبلون العسل المحروق. أتبين خاصة حدة تقاطيع محياه ونظراته وعينيه العميقتين. وربما كانت قامته الخيزرانية أقرب إلى الطول منها إلى الاعتدال. أنا أيضاً أذكر أنه كان يلبس سروالاً وكوفية وعقالاً وجزمة وحزاماً عريضاً، ويجيد الدبكة فيقف في الطليعة بعد أن يربط محرمته ويجدلها ويهزها فتدور بسرعة هائلة مثل مروحة أو سيف أو عصاه. وقد ارتسمت الدبكة في ذهني منذ تلك الأيام الأولى رقصةً شعبية، وتعاوناً فاليد في اليد والكتف إلى الكتف، ومبارزةً وتحدياً وتفرداً فهناك حرية الحركة والتنافس في إطار الانسجام الكلي. شكراً أنك رسّختَ هذا الانطباع الأول في ذهني يا زكي ناصيف.

وسمعتُ كثيراً عن خصامات خاضها والدي. تقول أمي وآخرون من الضيعة والقرى المجاورة أنه كان جريئاً لايهاب المخاطر. ويطمئنني الجميع أنه لم يبدأ المعارك التي خاضها بل كان يحب الناس ويحبونه. شخصياً أكاد أذكر معركتين شهدتهما. في أحد الأعياد كان على وشك أن يجلس إلى طاولة الطعام مع ضيف عزيز عندما جاءه مَن أخبره بلهفة أن معركة نشبت في الجبل بين أخيه جميل وغريب البربر الذي حشد له بعض أقربائه. رأيت أبي يضع خنجره تحت حزامه العريض ويحمل دبوسه ويمضي. تبعته إلى

ساحة المعركة ووقفت أراقب من بعيد (منذ ذلك الحين وأنا أتساءل إذا كنتُ دائماً أراقب المعارك من بعيد متحججاً بأنني أتعاطى سلاح الكلمة مع أنني في الواقع اضطررتُ لخوض بعضها وانتهت لصالحي). لم يتوجه أبي في تلك المعركة إلى غريب بل إلى أشد أقربائه بأساً، غير أن الناس تدخلوا ومنعوه من الاقتراب منه. أذكر يومها أن ابنته (وكانت صديقة لي) اقتربت مني وقالت بعتب، «أبوك يريد أن يقتل أبي». ولأنها كانت جميلة لم أسألها لماذا حشد أبوها لغريب البربر وضرب عمي.

أما المعركة الثانية التي أذكرها جيداً كما أذكر الأولى فحصلت أيضاً بسبب اعتداء على عمي جودت. لا أدري السبب. ما أعيه أن جدي جاء إلى بيتنا غاضباً وصرخ بأبي، «أنا ما عندي أولاد. ما عاد عندي أولاد. الناس تتعدى علينا وما بتسقط من رأسهم شعرة واحدة!».

وما أن فهم أبي ما حدث حتى تسلح بخنجره ودبوسه وخرج إل الساحة. في هذه المرة لم يتمكن الناس من صده فوصل إلى ثلاثة من المعتدين ورماهم أرضاً. وكان ذلك كافياً لتنتهي المعركة وتجري المصالحة، فقد وصل جدي وتظاهر بالغضب على أولاده آمراً إياهم بالعودة إلى البيت.

وكما كان له حضوره في الدبكة والمعارك، كان له حضوره بالغناء وإقامة الصداقات العديدة داخل القرية وخارجها. أعرف أنني لم أذهب إلى قرية من هذه القرى إلا أكرمني الناس وأحبوني بسبب سمعة والدي الطيبة. وطالما أخبروني أنه بمجرد طلته كان يعلن حضوره باستمرار فتهابه وتحترمه وتحبه في آن.

ومما أذكر بوضوح كلي أنه حالما يعود من عمله كان يقدّم لنا شيئاً مما حمله خصيصاً. لم يعد يوماً فارغ اليدين. يربط البغل إلى شجرة الزنزلخت وينزع كوفيته وعقاله ويحلق ذقنه ويصب كأس عرق فتُحضر له والدتي مازة كانت دائماً تشمل رأس شنكليش ممعوساً بالزيت ورأس بصل

ورغيف تنور بلون وجهه. في الصيف كانت المازة تشمل دائماً خياراً وبندورة. قالت لي أمي إنها أخطأت مرة وقدمت له رغيفاً «خلطاً»، فمزّقه وأطعمه للبغل سائلاً «من أين جلبتِ هذا الرغيف؟» فشرحت أن جارتنا الست زهية استعارت رغيفاً قمحاً وأعادته «خلطاً»، ولم يكن لها عين أن ترفضه. الست زهية كانت سيدة عائلة وجيهة تملك الطاحون، وكانت تنصح أمي بالاقتصاد. سمعها أبي مرة تقدم لها مثل هذه النصيحة فقال «يا شبينتي، شو فيها هالحياة بكرا منموت». ربما كان وراء هذا التوتر المبطن في العلاقات رغبة عند الست زهية أن نظل حيث نحن على صعيد الرمز، وإصرار من قبل والدي أن يؤكد على كرامته وحقه بتجاوز أوضاعه. وعندما كانت تظهر آثار التوتر واضحة، كانت تجري تواً محاولة من قبل الطرفين لطمسه محافظة على روابط ومصالح متبادلة. يقرن والدي رفضه لنصائحها بالتوجه إليها بتعبير «يا شبينتي»، وتشرح الست زهية أنها تريد لنا الخير فتقدم النصائح «من قلبها علينا» وتنتهي الأمور عند ذلك الحد.

عمل مكارياً ينقل الكثير من البضائع والحوائج والحجارة بين قرى المنطقة. وكما أنتقل أنا في هذه الأيام بين واشنطن ونيويورك وبوسطن وديترويت وشيكاغو وسان فرانسيسكو وبورتلند وأوستن وبين أميركا وأوروبا والمغرب والمشرق العربيين والجنوب والشمال، كان والدي ينتقل بين الكفرون والمشتى وصافيتا والدريكيش ومرمريتا والمشتاية وبرشين ومحردة والسقيلبية. وقد غرزت في وعيي قرى أخرى طالما سمعته يرددها مثل عيون الوادي والجويخات ورباح وعقرب ومصايف من ناحية، وبدادا وعين الجرن وحابا واليازدية وحب نمرة وغيرها من ناحية اخرى. وأذكر أيضاً أنه كان يسافر إلى عكار ويغني «جبل عكار يا جبل الثلوجي...» فيما يحسّ البغل. بعض عمومتي عملوا مكاريه أيضاً وأولادهم الآن يقودون سيارات «بيك ـ آب» ينقلون فيها البضائع بين القرى نفسها

ولكنهم أضافوا إليها حمص وحماة وطرابلس وطرطوس.

أقول لحبيبتي: كان صوته جميلاً.

ـ مَن؟

ـ آه، كنت أفكر بوالدي.

ـ تذكر صوته؟

ـ أظن. صوت أخي شبيه بصوته. إنما لا أزال أذكر تلك الليلة بوضوح كلي. في مساءٍ ممطر بارد جاء مخول يسهر عندنا. مَن لا يعرف مخول في تلك الأيام؟ كان كبير الرأس بشكل غير عادي، بشعاً، قصيراً مستديراً، فقيراً، وحيداً، غريباً، منبوذاً. عمل خادماً من الدرجة الثانية أو الثالثة عند بيت عرّابي فائق. لم نكن كأطفال نعرف أو نريد أن نعرف عنه أكثر من ذلك. لاندري من أين جاء، ومَن عائلته، وإن سمعنا بعضهم يقول إنه قريب لأم يوسف (يوسف بطل الضيعة في رفع الجرن ما غيره). لم يكن له أب، ولا أخ ولا أخت، وطبعاً لازوجة ولا أولاد. من ترضى أن تتزوج مخول؟ غصن يابس مقطوع من شجرة لانعرف أين كان موقعها. ومن كان هذا وضعه لابد أن يصبح في الضيعة هدفاً للسخرية والمطاردة. وهذا تماماً ما كنا نفعله: نطارده في أزقة الضيعة، نناديه «مخول بو راس» أو «مخول بو مخطة» ونهرب حين يطاردنا بالحجارة. كنا أيضاً نطارد الهررة والكلاب خاصة عندما تتجامع. تعرفين أن الكلاب حين تتجامع لاتستطيع الانفصال بسهولة.

ـ لا، لا أعرف. ولكن لماذا كل هذه الشراسة؟

ـ لا أدري. طالما تساءلتُ نفسي. في زيارتي الأخيرة لدمشق كنت أتجوّل في سوق الحميدية أبحث لك عن مرآة مُصدَّفة قديمة، فشاهدتُ الأطفال يطاردون امرأة عمياء وينادونها بسخرية «حليمة يا حليمة» فسألتُ أحد الباعة لماذا يعذّبون هذه المرأة المسكينة، فقال لي كأنما يتهمني

«نحن مجتمع بلا تهذيب» تعجبتُ لجرأته وقسوته في الحكم.

وطالما شعرتُ بالذنب كيف كنا نصطاد العصافير حتى في أعشاشها. وهذه هي الأعمال التي أكبتها وأجدها الآن متناقضة مع شعوري تجاه طائر الحوم، فأخجل أن أصرّح بها. ولكن هذا ما كنا نفعله. من أين تأتي هذه الشراسة؟ لن أنسى الحمامات التي ذبحها حسن. أكلتُ مرة حماما مشوياً في الاسكندرية. أحاسب نفسي أحياناً وعندما أقسو عليها أجدني أسوّغ ذلك فاقول إن جميع الناس يأكلون لحوم الحيوانات. أين حدود الشراسة وحدود الضروريات؟ أين الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام، وبين الإغراق في العاطفية وبين العقلانية الباردة التي تسوّغ أي عمل؟ لا أعرف. ويساعدني هذا التساؤل على التصالح مع نفسي ولكنني لن أتمكن أن أنسى، وأن أتغلب على الشعور بالذنب عميقاً في الصميم.

عندما جاء مخول يسهر عندنا، تساءلتُ لأول مرة لماذا نطارد هذا المسكين بالحجارة هو والكلاب والهررة والعصافير والسنجاب. أول ما لفت نظري حين حضرت إلى أميركا هذه العلاقة الإيجابية بين الناس والسنجاب، حتى إن طبيعته تختلف عن طبيعته عندنا. أذكر من طفولتي أن السنجاب عندنا شديد الحذر، لايقترب من الناس ويسكن أعالي أشجار السنديان والجوز الباسقة الكثيفة بعيداً عن الأماكن المألوفة.

المهم أن مخول جاء يزورنا تلك الليلة الباردة الممطرة، ففوجئت وخفت أنه جاء يشكوني لوالدي. لم أنس بعد «القَتلَة» التي أطعمني إياها أبي عندما سرقتُ باقة من البصل الأخضر من جنينة نجمة الصبح التابعة لفرح رومية. لم يكن من عادتي أن أجلب غنائم السرقة إلى البيت، فأنا أعرف النتائج. ولكنني هذه المرة اعتبرت أن الأمر سيكون مختلفاً لأنني توقعت أن يكون عشاؤنا «مجدرة» والحرام هو أن نأكل «مجدرة» بلا بصل. رغم ذلك أكلت «قتلة» ونمتُ بلا عشاء. تداركت الأمر فجلست إلى جانب مخول قرب

الموقد. ولم يذكر شيئاً عن مطاردته، فشعرت بالذنب وحاولت أن أظهر اهتماماً زائداً به. خطر لي أنني كنتُ في الواقع أقل الأولاد حماسة في مطاردته وتعذيبه. وعجبتُ أن أبي أظهر له مثل ذلك الاحترام. قدّم له كأس عرق وقشّر له بعض الدوّام (وهو ثمر شجر السنديان الذي كان يعتبر بمثابة كستناء الضيعة في تلك الأيام) الذي كنا نشويه على النار. ومما أذكره بوضوح كلي أن أبي أخذ يغني العتابا، فراح مخول يبكي بصمت. استرسل أبي بالغناء، فاسترسل مخول بالبكاء. احتفظت في نفسي بصورة لدموع مخول تنحدر متصلة إلى شاربيه ولحيته القصيرة وقد عكست بريق نار الموقد المترجرج والنار المتأججة في داخله تحت طبقة كثيفة من رماد حياته. منذ تلك اللحظة تأكدتُ أن صوت أبي كان جميلاً وإلاّ كيف تمكن أن يخترق جلد مخول وعظامه، ويغور في أعماقه فيثير فيه تلك الأحاسيس الدفينة. تأكدت أيضاً أن مخول ليس إنساناً بلا أحاسيس. يجب أن يكون قد كبت آلاف النزوات والعذابات والإهانات اليومية ودفنها تحت ركامات النسيان في محاولة دائبة للإنسجام مع واقعه. فجأة يتوقف الكبت وتنهار سدود النسيان (أي طبيب نفسي يستطيع أن يفعل ما تفعله العتابا) فتتدفق أحاسيسه مثل نبع ينفجر من باطن الأرض. في تلك البرهة فهمتُ لماذا نسمي الينابيع الصغيرة عيون الماء.

شعرتُ بالذنب ولا أزال. لن يطارد أحد مخول من الآن فصاعداً دون أن أقف إلى جانبه وأطارد مطارديه. وضعتُ نقيفتي (وكانت أفضل سلاحي في ذلك الوقت) تحت تصرفه. لم يعش مخول طويلاً. وعندما استبدلتُ نقّيفتي بالكلمة، كانت وما تزال السلاح الذي أجيده.

ـ تذكرين حادثة «أشكِس» ذلك الأسود الأميركي الذي قتل سبعة من رجال الشرطة قبل أن يقتلوه.

سألتُ حبيبتي، فأجابت مستغربة هذه الالتفاتة السريعة في تداعياتي:

أذكر، ولكن ما علاقته بمخول؟

ـ يبدو لي أن هناك علاقة وثيقة. كانت أوضاعهما واحدة. كلاهما منبوذ مطارد ومهدَّد في صميم رجولته. ولكن أسكِس تمرد في الوقت الذي كان مخول يلجأ إلى البكاء. صنعت له نقّيفة ولكنه رفضها.

ـ ولكن هجوم «اسكس» على الشرطة وقتل سبعة منهم عبث.

ـ قلتِ هجوم «اسكس» ولم تقولي دفاعه. الأفلام الأمريكية دائماً تصور الهنود ينصبون كميناً ويهاجمون العائلات البريئة التي تضم عادة رجلاً هرماً وامرأة جميلة وطفلاً. إسرائيل تسمي جيشها جيش الدفاع. احتل الضفة والجولان وغزة وظل جيش دفاع. وصل إلى بيروت وظل جيش دفاع. هدم البيوت فوق العائلات وظل مدافعاً.

ـ ولكن قتل «اسكس» لسبعة من رجال الشرطة عنف عبثي.

ـ صحيح، إنما أقبل تفسير أمه: طاردته الشرطة لأسباب تافهة. أدرك أنهم أرادوا قتل رجولته وعنفوانه فرفض أن يخضع. ظل يهرب منهم حتى وجد نفسه مضطراً أن يواجههم. قتل سبعة قبل أن تثقب جسده عدة رصاصات.

ـ أذكر الآن الحادثة بوضوح. أظن أن الرئيس نيكسون أعلن في ذلك الحين أن عمل «اسكس» الإجرامي خرق للقانون والنظام.

ـ صحيح. لكن هل يحق لبطل عملية «وترغيت» أن يتكلم عن القانون والنظام. هذه القدرة الهائلة على النفاق، وبكل تهذيب وأناقة. بكل أناقة وخشوع استدعى المسيح والله ودعا الناس للصلاة من أجل السلم في ليلة عيد الميلاد ثم أرسل الطائرات لتقتل المستشفيات والمدارس في فيتنام. كل ما في الأمر أنه أصدر أمراً، وكل ما احتاج إليه الطيارون الأبطال أن ضغطوا زرّاً فانهارت الصّواريخ ونالوا أوسمة زيّنوا بها صدورهم الواسعة. قتل من نوع جديد. مجرد الضغط على زر دون مواجهة الضحية. لم تتلطخ بدلات

نيكسون وطياريه الأنيقة ببقع الدم. وأنتَ أيها الطيار القذر الذي رمى القنبلة الذرية على هيروشيما، أزعجني جداً تصريحك أخيراً بأنك لاتشعر بالذنب وبأنك مستعد أن تكرر جريمتك إذا طلبت منك حكومتك ذلك.

ـ لا أستطيع أن أنسى مشهد تلك المرأة الفيتنامية الشابة. نُسِفَ البيت الذي وُلِدَت فيه وقُتِلَ زوجها وطفلها. دون مقدمات وبلمحة خاطفة انتهى كل ما تملكه. تمشي فوق أنقاض بيتها ضائعة، مأخوذة، نائحة، مجنونة.

ـ يتساوى بهذا المشهد مشهد تلك المرأة الأميركية الشابة التي قُتِلَ زوجها في فيتنام. عندما سألها مراسل التلفزيون كيف تشعر، أجابت بغضب: لا أستطيع أن أغفر لهذا البلد أن أرسل أفضل شبابنا للموت في بلاد نائية. ما هو شأننا؟ كَتَبَ زوجي قبل أن يموت إنه لايحترم حكام فييتنام الجنوبية. شعر أنه يدافع عن اللصوص ويحارب المحررين المثاليين. درستُ التاريخ منذ الطفولة وكوّنتُ فكرة ناصعة عن نظامنا. لقد تحطّمت الصورة ولا يهمني أن أجمع أجزاءها بتاتاً.

ـ بموت زوجها أدركت الحقيقة كما أدركها بولس في طريقه إلى دمشق فلم يعد بإمكانها حتى أن تسوّغ القتل.

ـ أسوأ تسويغ سمعته في حياتي قول مسؤول أميركي إن إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما كان عملاً إنسانياً لأنه أوقف الحرب. وأفظع من ذلك تصريح الطيار الذي ألقى القنبلة. مثله الأدميرال زامولت الذي قاد القوات البحرية الأميركية في فييتنام. تذكرين أن ابنته كانت تلميذتي؛ لطيفة حقاً. هو الذي أصدر أمراً برش الغابات بمادة «ايجنت أورنج» السامة. ومن عجيب الصدف أن ابنه كان يحارب على الأرض تحت هذا الضباب القاتل. الابن الآن مصاب بالسرطان وابن الابن وُلد معاقاً عقلياً بسبب التعرض لهذه المادة. ويعترف الأدميرال أنه مسؤول، على الأقل بشكل غير مباشر. رغم ذلك يؤكد أنه لايشعر بالذنب وأنه مستعد أن يصدر الأمر في الوقت الحاضر

إذا اقتضت الحاجة. حوّلوا الطاعة للدولة إلى موقف أخلاقي.

وأرادت حبيبتي أن تغير الموضوع حقاً. أعتقد أنها على حق. لماذا تطاردنا هذه الصور الكالحة في وسط سيمفونية الألوان؟ أتساءل ولكنني أجد نفسي أتابع: الحكاية ذاتها تتكرر. حل ريغان محل نيكسون. أعطوا الضوء الأخضر لإسرائيل أن تغزو لبنان.

- ذلك الدب الآخر! ما اسمه وزير الخارجية؟ الكسندر... الكسندر هيغ.

- والدب الذي خلفه. مَن سيذكر في المستقبل جورج شولتز؟ عندما أشاهده على شاشة التلفزيون لا أستغرب أن يطلع له قرون في تلك البرهة بالذات لكثره حقده.

- وذلك المبتسم الأبدي صنّف العالم بلغة القرون الوسطى إلى مجتمعات بربرية ومجتمعات متحضرة.

- أيضاً ليسوّغ القتل.

أيضاً أفشل في محاولتي لتغيير الموضوع. الصور الكالحة تطاردني دون رأفة بنفسي التي تريد المغفرة والمصالحة والتمتع بالمحبة والجمال والفن، فأتابع حديثنا معتذراً: أميركا في علاقاتها بالعالم مثل ظاهرة الاضطرابات الجوية التي تسمى بالإسبانية «النينو» والتي تسبّب الفيضانات والجفاف. حيث لاحاجة للمطر تسقط أمطارها الغزيرة حتى تجرف كل شيء بطريقها، وحيث تكثر الحاجة للمطر تحجب نفسها كلياً حتى تتشقق الأرض من الجفاف.

- الكلمة في الإسبانية تعني الطفل ولا أدري لماذا أعطوها هذا الاسم.

- وأنا أيضاً لا أدري.

ونتابع تجولنا بصمت في ممرات متشعبة علّنا نتحرر من الإحساس بالمطاردة.

□□□

اغتيَالُ الأَزهار البَريّة

أتذكر رحلة إلى جنوب لبنان في يوم ربيعي جميل. سحرتنا حقول الأزهار البرية المترامية أبعد من حدود النظر. في مثل تلك الأيام الربيعية بالذات غزت إسرائيل الحقول نفسها فعدتُ إلى الصور التي التقطناها. تصوّرت دبابات جيش الدفاع الإسرائيلي تمر فوق الأزهار البرية. أرجو ألا يكون أهلك قد تعرضوا لأي خطر يا جورج. وأنت يا حسن أين أرضك؟ ترى ما وضع العديسة وعين الماء التي شربنا منها حتى الارتواء؟

أسألك يا جاري مايك أندرسون مَنِ المدافع ومَنِ المعتدي. مَنِ القاتل ومَنِ الضحية؟ مَنِ المتحضر ومَنِ البربري؟ مَنِ البطل ومن الجبان؟ تريد حكومتك أن تنسف كوبا ونيكاراغوا وإيران ولبنان وسوريا عن وجه الأرض. وتعتز أنتَ بأنكَ قتلتَ عدداً كبيراً من اليابانيين الذي تسميهم «جابز» في الحرب العالمية الثانية. لماذا تختزن في نفسك هذا الحقد كله؟ بأي دافع تنهض باكراً كل صباح وترفع العلم الأميريكي أمام بيتك؟ ولكن ما نفع التساؤل؟ ماذا يفعل مَن لاصوت لهم؟ ماذا يفعل الضعفاء؟ أريدك أن تعرف أنني أقف في صف مخول الذي لم يقاوم. بعض الضعفاء يقاومون عندما يُهّددون في صلب كرامتهم. سيصنعون من موتهم تاريخهم. لاتنس أننا نحتفل بطقوس موتنا، لا بطقوس مولدنا. بإمكانك أن تصفنا بأية صفة أردت. المهم أن يقتنع البطل أنه بطل. المهم أن يظل البطل بطلاً يحافظ على نقائه. لاتنس أن التاريخ صراع. سلاحكم أن تصنّفوا البطل إرهابياً والخائن معتدلاً. حكومتك عرّفت المعتدل بأنه مَن

يرغب في إقامة صداقة مع أميركا ويحرص على مصالحها. ترى الأمور من هذا المنظور فحسب. هل للشعوب المستضعفة مصالح؟ تضحكون على أنفسكم فيما تظنون أنكم تضحكون على العالم والتاريخ. وكيف تسوّغون سحق الأزهار؟ أردّد ما قاله لكم لِنكلن أن لامهرب من التاريخ الذي يسجّل مَن يسلك طريق الخير ومَن يسلك طريق الشر.

كانت الغالبية العظمى من أهل قريتنا من العائلات المستورة تأكل خبزها القليل بعرق جبينها الكثير. لامال، لا علم، لا فرص. كنا متخلّفين يا مستر أندرسون. إنما كان في القرية عائلتان أو ثلاث من الوجهاء على علاقة وثيقة باقطاعيّي المنطقة ورجال السياسة والدين والتجار الكبار. عندما كان يزور الكبار القرية في أيام الانتخابات أو الأعياد كان هؤلاء الوجهاء الصغار يتنافسون وأحياناً يتقاتلون على استضافتهم فيكبرون في أعين الصغار وعليهم. كانوا فعلاً يتقاتلون. ضرب عصي وحجارة. لامبالغة. قتال عنيف كذلك الذي كان يشنه الضعفاء بعضهم ضد بعض عندما يختلفون حول الأولوية في تفجير ساقية الماء وريّ بساتينهم. أذكر مشهداً لا أنساه. رجل انفجر رأسه وغمر الدم وجهه وعنقه وثيابه.

المهم أن ابن أحد الوجهاء الصغار انتشل من يدي كرة كان أبي قد اشتراها لي في إحدى رحلاته. أخذها مني عنوة وانطلق إلى بيته. يومها بكيتُ وانسحبتُ مقهوراً باتجاه بيتنا. يبدو أن أبي كان يراقب العملية من سطح بيتنا دون أن أعلم فهبط لملاقاتي. انتظرني في منتصف الطريق عند مفرق لم أره حتى وجدت نفسي أمامه وجهاً لوجه. دون استفسار وشرح أمرني أن أعود وأستعيد الكرة مهما كانت النتيجة وأنذرني ألاّ أعود إلى البيت بدونها. تجاه هذا الحزم لم يكن أمامي مجال للتردد. لم أبكِ. عدتُ وأنا أعرف تماماً أن جارنا أقوى مني وأن أحداً من قبل لم يجرؤ على مواجهته. ولكن كان لابد من المواجهة. دخلتُ تواً في معركة واستغربتُ

أن ابن الوجيه لم يكن قوياً بقدر ما توهمت. رميته أرضاً. وانتزعت الكرة منه وعدت مزهواً. كان أبي لايزال ينتظرني. لم يقل شيئاً بتاتاً. وضع كفه على كتفي ومشينا معاً إلى البيت. كسر لي جوزة ولفها بقطعة ملبن وقدّمها لي. أنت لاتعرف أكل الجوز والملبن يا مستر أندرسون. خالتي نظيرة ماتزال ترسل لي الملبن إلى أميركا. عمتي فهيدة ترسل لي أيضاً مؤونة الشنكليش هي وخالتي لطيفة. سأكون صريحاً معكَ وأخبرك بأنني وعدتُ عزمي عبد القادر أن أقدّم له جوزاً وملبناً عندما يستعيد بيته في القدس.

هناك شيء آخر أُريد أن أخبرك إياه يا مستر أندرسون. فيما كنتُ أتسلق جبال شنندوه استمعتُ إلى شريط أهداني إياه حنا، مرتل الكنيسة الأرثوذكسية هنا في واشنطن. تريد أن تعرف ما هو الشريط؟ أخبرك أنه تلاوة قرآنية للشيخ إسماعيل. فيما نتسلق جبال شنندوه ارتفع صوته رزيناً هادئاً:

﴿ولقد آتينا داوود وسليمان علماً

... وقال يا أيها الناسُ عُلِّمنا مَنطِقَ الطير

... وحُشِرَ لسليمان جُنُودُه من الجنّ والإنُس والطير

... حتى إذا أتوا على وادِ النمل قالت نملةٌ يا أيها النملُ ادخلوا مساكِنَكُم لايحطّمنكم سليمان وجنوده

وهم لايشعرون.

... قالت إنَّ المُلوكَ إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعِزةَ أهلِها أذِلّة.

ارجع إليهم فَلَنَأتينهم بجنودٍ لا قِبَل لَهم بها ولنُخرجنهم وهم صاغرون﴾[1].

---

(١) سورة النمل: ١٤ - ٣٧.

هذه رموز يا مستر أندرسون. أمس قرأت أن صهيونياً حسب القرآن في يد عِربي قنبلة فأطلق عليه النار. إصغائي رموز. لو كنتُ أفتش عن مجرد الكَيف لكنت استمعت لفرانك سيناترا الذي يغني للجنود المنكسرة في قواعد عسكرية حصينة. لماذا أذكر أسماء تافهة من هذا النوع؟ لا أدري. لايجوز. ربما لأنك تحبها أيها الذي يريد حكومته أن تنسف مجتمعات متمردة عن وجه الأرض ويعتز أنه قتل عدداً من اليابانيين.

أعتذر يا مستر أندرسون. قلت لك ما أشعر به بصراحة متناهية. ولكن لا أريدك أن تستنتج أنني أحقد عليك. تخطئ إن استنتجتَ ذلك. أشعر معك في الواقع وأريد أن أهنئك أن العملية التي أجريت لزوجتك في المستشفى كانت ناجحة. كل ما أردت هو أن أحذرك من اختطاف الكرة واغتيال الأزهار. أعرف أنك لن تتمكن من التمييز بين القاتل والضحية. ثم بإمكانك أن تلقي علي محاضرة حول الديمقراطية. لا مانع عندي. أستطيع أن أصغي كما أصغيت مرات في السابق. ولكنني أريد أن تعرف أنني تجاوزت الخمسين من عمري ولم أنتخب مرة واحدة في حياتي. هذا هو تعليقي الوحيد على الديمقراطية. إنني بذلك مثل بوب فروست الذي لم يسجّل ولم ينتخب. يفضّل أن يعزف القيثار على أن يخدع نفسه فهو يعرف أن لا اختيار حقيقي في الأمر.

إنني متخلف من العالم الثالث. ربما لاحظتَ أنني عندما أنزل من السيارة أربّتُ على مؤخرتها. أكيد لاتعرف السبب. في طفولتي كنت أركب البغل. وعندما أنزل أربّتُ على مؤخرته متشكراً. إنها عادة من الماضي السحيق. حتى السيارة نعاملها على أنها مخلوق حي ونشكرها. قبل أيام سألتني أمي إذا كان أخي قد حسّ البغل وقد قصدت إذا غسل السيارة. أفهم استغرابك كيف يمكن أن أكون أستاذاً في واحدة من أفضل الجامعات الأميركية. أمس قرأت أن بعض الشباب الأميركيين البيض

يعتدون على المهاجرين الكمبوديين لأن هؤلاء تمكنوا أن يحققوا بعد ثلاث سنوات من هجرتهم ما لم يحققوا هم طوال حياتهم. ولكن هذا الاعتداء ما كان يحصل لولا المناخ العام الذي تولّده سياسات حكومتك العلية. أؤكد لك أنني لست غافلاً عن وجود تناقضات وتيارات متصارعة في الغرب. أمس قرأت قصيدة لطالبة جامعية فيها:

أنا غربية
كنت ضيفة عائلة سودانية في الخرطوم
حيث يلتقي النيل الأزرق بالنيل الأبيض
ليس هناك مطر في السودان
هناك الشمس والناس
آكل، آكل طيلة اليوم
آكل الجبنة والطعمية والكبدة والسلطة والتمور
أشرب الشاي
أنا ضيفة في السودان
أنا غربية
نركب سيارة مرسيدس مكيفة
لا أستطيع أن أُميّز
بين النيل الأزرق والنيل الأبيض

الطالبة الجامعية إسمها إيزابيل. هل تريد أن تتعرف إلى إيزابيل يا مستر أندرسون؟ لا أدري ماذا تعتبرها. على الأغلب أنك ستعلنها شيوعية فترتاح من عناء البحث عن الحقيقة.

□□□

جيلٌ آخَر مِنَ الغَابَات

عدت إلى الواقع من رحلاتي الخيالية. قلتُ لنفسي، «أهنئك بانتصاراتك الوهمية يا دون كيشوت»، ولحقتُ زوجتي التي كانت تجمع نماذج مختلفة من أوراق الشجر المتساقطة. سألتُها إذا كانت تتزوجني لو طلّقنا، فأجابت من دون تردد أنها كثيراً ما كرّرت أخطاءها في السابق ولكنها ستحرص ألاّ تفعل ذلك في هذه الحالة. قلتُ لها: لن أوافقك على طلاقنا لأنني حتماً سأعود لأطلب يدك.

احتويتها بذراعي. أطلقت سراحها. سرنا جنباً إلى جنب. نجوب طرقاً فرعية ضيقة، ونعود نسلك الطريق الرئيسية. نتابع السير دون هدف. يقفز أمامنا «تشبمنك» ويختفي في جذع شجرة مهترئ. نقرأ لوحة صغيرة تتحدث عن تلك الشجرة وعلاقتها بالموت والحياة:

تزحم الشجرة الميتة بالحياة
بعد أن تموت تتوقف عن مقاومة غزو الخنافس والبكتريا والفطر.
حالما يصبح خشبها طرياً،
تهاجمها الديدان والنّمل والحشرات الأخرى،
فتصبح منزلاً لمخلوقات حية عديدة،
... تتفتت مع الزمن وتعود إلى التراب
غذاء لجيل آخر من الأشجار.

تسربت هذه الكلمات إلى عالمي الباطني وتوالدت، ففكرتُ بغابات

المستقبل التي تتوالد من جذور غابات تموت اغتيالاً. لاشيء يستمر، إنما لاشيء ينتهي. ليس الموت رحيلاً إلى عالم آخر، أم تراه كذلك يا إلياس الأخرس.

تغمر وجهي غيمة من حزن وتنعكس ظلالها في عيني حبيبتي. أفكر أن البحيرات مرايا السماء والأشجار، وأنادي طائر الحوم: مثلك رحيلي وولادتي بعد كل موت؟.

كان ذلك في أيام الحصاد في أواخر الربيع ومطلع الصيف. سنابل القمح الذهبية تتماوج في منعرجات التلال مع الهواء، تتمايل في مختلف الاتجاهات بتناسق، وتتلامس مثل راقصي وراقصات بحيرة البجع أو كسّارة الجوز.

وتحوّل النهار الحار إلى ليل ممطر فاغتسلت الأشجار والطرق والبيوت من الغبار واتشحت بنسيمات باردة. كان أبي قد اغتسل بدوره من أتعابه اليومية وصعد إلى خيمة الغار (عرزال كان ينصبه صيفاً بين شجرتين أمام بيتنا) لينام، غير أن نجيب وميغال حضرا في تلك اللحظة وحدثاه مطولاً عن خلاف جرى في ذلك اليوم حول أولوية السقاية.

نمتُ قبل أن ينتهي الحديث، وعندما استيقظتُ في صباح اليوم التالي لم أجد أبي فشرحت لي أمي أنه ذهب مع طبيب الأسنان في مهمة إلى مرمريتا، وأنه سيقضي يوماً أو يومين في مرمريتا وحب نمرة حيث سيشد سرجاً جديداً للبغل.

وعاد بعد يومين مريضاً مكوماً على نفسه من الألم. ثقل حاله تلك الليلة فلم يتمكن من النوم. دعت أمي جدي سليم وعمي جميل وعمي يوسف، وسمع الجيران فأقبلوا بدورهم يساهرونه. وقبل أن يطلع الصبح أرسلوا عمي جميل كي يحضر الدكتور طعمه من المشتى. وتقول أمي، أما أنا فلا أذكر وأعتقد أنني كنت نائماً، إن عمي عاد بعد ساعة وبلّغهم أن

الحكيم رفض أن يأتي معه قبل أن يعطيه مسبقاً ثلاث ليرات. أعطته أمي القيمة فانطلق مرة أخرى باتجاه المشتى. وفجأة شعر والدي بارتياح فنهض وغسل وجهه وتحدّث مع جدي وعمي يوسف في شؤون عدة.

وحضر الحكيم فكشف عليه ودقّق في فحوصاته فيما كان يمزح معه. استنتجَ أن المرض كان «نمونياً» فشكه إبرة وأعطى أمي بعض التوصيات ومضى يزور جارنا الوجيه. أذكر أن الزوار انصرفوا أيضاً وعاد أبي إلى فراشه. وخرجت أمي تعدّ له لزقة بناء على تعليمات الطبيب، فبقيتُ وحيداً معه. هذا ما أذكره، غير أن والدتي تقول إن أبي غاب عن الوعي حالما شكّه الحكيم بتلك الإبرة اللعينة، ثم تعدد أسماء ضحاياه في الضيعة والقرى المجاورة.

ما أذكره شخصياً أن أبي أومأ لي أن أجلس قربه فاقتربت بوجل كما اقتربتُ من طائر الحوم المصاب. رأيتُ وجهه العسلي المحروق يزداد شحوباً وبسرعة. عادت الغيوم في الخارج تُطبق على الأرض وتحبس أنفاسها، وتدخل ظلالها المعتمة إلى المنزل وتجلس معي قرب أبي. الهواء لايتحرك فيجثم على الصدر. غيوم كثيفة ولاتمطر هذه المرة. وحيداً أجلس قربه فيما تشغل أمي النار في الخارج وتعد له اللزقة. لايتكلم معي ولا أجد ما أقوله. لا أعرف كيف أضمد جناحه الكسير.

تمتد يده إلى يدي وتقبض عليها. كانت حارة مضطربة. يحاول أن يبتسم. على غير العادة، كانت ابتسامته باردة شاحبة نحيلة. أخاف ولا أجد ما أقول. أغرق في صمت عميق. ظلال الغيوم الداكنة تربض على الحيطان وتكاد تحجب الزوايا، فاسترجعت مواسم القز السنة الفائتة. في ذلك الوقت كان البيت أيضاً معتماً. ضمنَت والدتي يومها توتات قطيرة وربّت نصف علبة قز وتديّنت مصاري على أن تعيدها في الموسم وباعت مكنة الخياطة. ولكن الموسم جاء سيئاً جداً تلك السنة فخلّده عبود الحداد

بزجلية ورد فيها مقطع عن أمي:

مَـريَم ربّـت لـقـطـيـره   قـزّه مـا عِـمـلَـت غـيـرا
اشـتـرت فـيـهـا صـفّـيـره   حـتـى تـسـكّـت حـلـومـي

غريب أمر الضيعة في مثل هذه الظروف. دائماً يسخرون من المصائب ويخرجون منها معافين كأن شيئاً لم يحدث.

رغم هذا التراث الذي نشأتُ عليه عليه واستبطنته فأصبح جزءاً من عقليتي ومزاجي، أعترف أنني لا أزال عاطفياً. حزنتُ عليك كثيراً يا عبود الحداد. أردتَ أن تموتَ في عزك ولكنك عشتَ طويلاً لتتعذب كثيراً. ذهبتَ إلى أولادك في بيروت كي لاتشهد الضيعة مأساتك الأخيرة. كانت مسرحك في أيام العز، يا شيخ القوّالة والدبكة. كنت تفتن الصبايا عندما تقود الدبكة في الأعراس والأعياد.

أريد أن أخبرك أن مريم التي ربّت لقطيرة وفشلت في مشروعها الأول كافحت كثيراً بعد موت أبي. حصدت في سهول المشرق وخبزت للناس في الضيعة وخدمت في بيروت فغسلت وكنّست وشطفت وكوت وطبخت كي ترسلنا إلى أفضل المدارس وتحافظ على كرامتها وكرامتنا. نذرت نفسها فلم تكنّ عن العمل. وحين تخلو لنفسها كنتُ أسمعها تردد بعض القصائد الزجلية. ومن الأبيات التي كانت تردّدها لنفسها:

لابد عن شِدة ولابد عن ضيق   لابد عن رخا وأيام الهموم تزول
لابد عن جزع الطويل لينحني   ولابد عن جزع القصير يطول
لابد للأحبة أن يتفارقوا   ولو ربطّوهم بحبال وتول

لاشك أنك أنتَ أيضاً كنتَ تردّد قصائد الصبر والأمل. تعرف ولاشك بيت الشعر الشعبي الذي يقول «ياقلب كون صبور لتهون الأمور». ولكن لابد من كفاح وكبرياء. لقد شكّل هذا مشكلة بالنسبة لي

كفقير في أوساط الأغنياء في المدرسة وبحكم عمل أمي. لم أرتح يوماً لعلاقاتي بالأغنياء. أحسستُ دائماً أن علاقتي بهم كانت في أساسها مبنية على الإذلال، خصوصاً عندما تتم باسم الرحمة. لا أحب هذه الكلمة. أكرهها بقدر ما أحب كلمة عدالة. لابدأن لهذا تأثيراً كبيراً على موقفي من الدين. لاتسألني كيف. لا أدري. هذا ما كنتُ أحسه في عمق أعماقي. كانت تتوتر علاقتي بالأغنياء خصوصاً حين أتفوق عليهم في المدرسة، وحين يقولون «الفقير فقير بسبب كسله». أظن أن هذا هو السبب الذي جعل إحدى السيدات اللواتي تشتغل لهم والدتي أن تنصحها بإخراجي من المدرسة فأعمل وأساعد العائلة. طبعاً، رفضت أمي النصيحة، وكادت أن تسألها لولا العيب «ولكن من يعلّم أولادك إذا ترك ابني المدرسة»؟

آه، تذكّرتُ الآن ما أردتُ أن أقوله لك. أمي كبرت ولم تعد الإنسان الذي تعرفه أو حتى الذي نعرفه نحن. أقول لك سراً لم أقله لأحد من قبل ولا أعتقد أنني سأجرؤ حتى أن أواجه به نفسي. أنتَ وأنا والجميع يعرفون أن لأمي فضلاً كبيراً علينا وأسعى أن أكافئها على أتعابها وأوفر لها حياة سعيدة كريمة في السنوات الأخيرة من عمرها. إنما كانت هناك مشكلة مستعصية قبل سقوطها. لمدة أصبحت حياتها مليئة بالأوهام والشكوك. لم تكن تفكر بنفسها. أنكرت ذاتها كلياً. ولكنها وقد بلغت السابعة والثمانين أصبحت مشغولة بنفسها كلياً. انطوت على نفسها فلم تعد ترى غير همومها. كان أكثر ما يخيفها أن تعجز فلا تتمكن من العناية بحالها وتردد «يا الله من وقعتي لحفرتي». وقعت ولم تذهب إلى حفرتها. مدفونة فوق التراب لاتحته. حتى قبل وقوعها لم تطمئن لعلاقاتها، فكانت تصلي باستمرار لله كي يشفق عليها ويعينها على آلامها ويحنن القلوب عليها ويبعد الأعداء عنها. في سبيل أن تتغلب على مخاوفها ووحشتها

وضجرها، حوّلت حياتها إلى طقوس تدور حول مشاكلها وأوهامها. بدأت تنسى كثيراً. تنسى الأسماء والوجوه والحقائق وما تقول أو تسمع. وبسقوطها نسيت كل شيء. صعب جداً أن يرى الإنسان أمه تنهار، وبهذا الشكل. لم تساعدني على مساعدتها فعميقاً في قرارة نفسها كانت تعتقد أن الولد هو الذي يجب أن يسمع من الأهل وليس العكس. كانت تتجاهل نصائحي فأغضب عليها غضباً شديداً. طبعاً حاولتُ أن أصبر عليها مدركاً أنني يجب أن أتجاهل هفواتها المتكررة. ولكن الإنسان لايستطيع أن يضبط أعصابه دائماً. كنت أغضب، أصرخ، أشتم، أهدد، إنما عبثاً. لم تكن تعرف أنها تخطئ، وعندما كانت تعرف وتعترف (وكان هذا شيئاً نادراً جداً)، كانت تجرّدني من سلاحي إذ تقول، «يقطع عمري. خرفت. طوّل بالك عليّ يا ابني. سامحني». وحين كانت تذكّرني بتضحياتها وتحاول أن تثير إحساسي بالذنب (وهذه مهارة تجيدها تماماً)، أزداد غضباً. ومع الوقت تعلمّت أن أواجه محاولاتها لإثارة شعوري بالذنب بسخرية لاذعة فأقول لها «أبي لم يمت، هرب». كان ذلك يُغيظها حقاً. ولكنها أيضاً تعلّمت ألا تهتم. أما الدرس الأهم الذي تعلّمتُه أنا فهو أن الإنسان يجب أن يعرف متى يموت. أرجو أن أعرف متى يجب أن أستقيل من الحياة. ليس أتعس من الإنسان الذي ينشغل بنفسه. كم أحس بالشفقة على المنشغلين بمهمة إنقاذ أنفسهم بدلاً من مهمة إنقاذ العالم. ربما هذا سر من أسرار تعاسة الأميركي ووحدته العميقة عمق الصحراء. هذا ما كان عليه وضع أمي قبل سقوطها، والآن تضاعفت مشاكلها وتعمقّت واتخذت أشكالاً جديدة.

أظن أن الحديث أصبح مملاً ولم تعد تفهمني. ربما لا أفهم نفسي. ما أرحم الموت قبل فوات الأوان! ما أصعب الموت في أوج تفتح الحياة. أتذكر الآن الياس الأخرس. تزوج متأخراً فجاءه صبي فرح به كثيراً. ولما

كبر خرج للصيد مثل أدونيس ولم يعد. وجدوه مقتولاً. هل افترسه الخنزير الذي افترس أدونيس؟ دمه لم يسل في النهر ولم ينبثق الربيع في حياة إلياس الأخرس بعد ذلك الحين. الموت في الشباب قاس كالصوان يا عمي الياس. الآن متَّ وارتحتَ، لاشك.

تمتد يد أبي وتقبض على يدي. يأخذها إلى فمه ويقبّلها. يجتذبني إليه. يسند وجهي إلى وجهه. يضحك عندما شعر أنني أحاول أن أبعد وجهي بلباقة وسأل: شوّكتك؟ لم أحلق ذقني اليوم.

ترتفع يداه فجأة نحو السقف. تهبطان ببطء. يكز على أسنانه. أحدق به مرعوباً فقد أبصرت في عينيه تحولاً كبيراً. يجب أن يكون قد أبصر الموت وجهاً لوجه. لم أتمكن أن أتحرك من مكاني فصرختُ لأمي. اختنق صوتي. كان لايزال يكزّ أسنانه.

□□□

أَقاصي الحُزنِ والفَرَح

وأستيقظُ فجأة من كابوس، فقد أحسستُ بيد حبيبتي تغط على كتفي تحت شجرة وارفة من أشجار جبال شنندوه. يدها عصفور يغط على أغصاني. تهتز ورقة شجر صفراء وتسقط فوق جدول في الكفرون فيجرفها تيار بسرعة نحو الشلال.

أسأل حبيبتي: هل تذكرين شلالات المخاضة في الكفرون؟

ـ تسميها شلالات؟ لاتقارن حتى بالشلالات الصغرى في نهر البوتمك! المهم ما جلبها لرأسك الآن؟

ـ طائر الحوم.

ـ طائر الحوم؟

ـ نعم جلبها إلى رأسي طائر الحوم. يذّكرني حديثنا بذلك الطفل الذي سأل أمه من أين جاء فقالت، «جلبك طائر الورور» ثم سألها من أين جاء أطفال الجيران فأجابت إن سمير طلع من الملفوفة وفادي من الخسة وفاديا من الوردة وسليم من التفاحة، فقاطعها الطفل، «بيظهر الرجال والنسوان ما بيناموا مع بعض في هذا البلد»؟

لم تضحك حبيبتي ولو مسايرة فقد سمعنا هذه النكتة مرات عديدة قبل ذلك وحتى الملل. وبوجوم عادت تسألني: لم تخبرني كيف جلب طائر الحوم شلالات المخاضة إلى رأسك.

ـ حملها بمنقاره الطويل الصلب وتحت جناحيه الكبيرين.

- ثقيل.

أدركت أنها تعني ما تقول فقد ازداد وجهها وجوماً فيما تحدق بي منتظرة جواباً حاداً قلتُ بهدوء: عندما ألقيتِ يدكِ على كتفي وأنا غارق في تخيلاتي حسبتها للوهلة الأولى طائراً يغطّ على غصن شجرة دلب عند ضفّة النّهر في الكفرون. وعندما قفز إلى غصن آخر تساقطت ورقة إلى النهر وانجرفت في التيار نحو شلال صغير.

اختطف تيار الموت أبي إلى عالم آخر. هدأ وجهه كورقة خريفية صفراء. هبط الموت إلى الكفرون المشرفة على أودية خضراء وبحث عن روح أبي المتعبة التي قاست طويلاً في كروم لم تثمر. هبط الموت كعقاب واختطفه وحلق به بعيداً.

العيون تذرف الدموع. الزوجة المكلومة القلب تبكي. الابن المكسور القلب يبكي. الابنة المتروكة المستوحدة لاتكف عن البكاء. والصغير الصغير الجميل الذي ورث ملامح والده لايفهم ماذا جرى، وإن أحس أن فاجعة حلّت في عالمه. شاهدوا جميعاً الموت مقبلاً مثل عقاب يهبط نحو الأرض بسرعة فائقة، ويقتلع أبي من وطنه دون أن يترك مجالاً ليهمس وداعاً. المحزن في الأمر أن الصغير لايعرف بوجود وطن آخر.

تستغيث أمي فيندفع الأقارب والجيران. يدق جرس الحزن. فتسأل الفتاة الصغيرة فهيدة: مَن مات؟

يقال لها «ياويلك، أخوك» فترمي حزمة الذرة عن رأسها وتنزع قبقابها وتركض حافية. كذلك مريانا الجميلة اللطيفة الحنونة المرحة المحبة، يحل الرعب في وجهها مكان الابتسام الدائم وتركض باكية حافية إلى منزل ابن عمها الأقرب إلى قلبها. يصل بقية أهل الضيعة. يقبل أناس آخرون من القرى المجاورة. ينادون الطبيب الذي كان لايزال يزور وجيه الضيعة، فيرشف البقية الباقية من فنجان القهوة ويقبل متردّداً. أفسحوا له الطريق

إلى فراش الموت. يتأمله، يلمس ذراعه، ويعلن موته رسمياً، «عوّضنا بسلامتكم»، يربّت على كتف أمي مصبّراً، وينحني ليقبّلني وينسحب بسرعة.

أضيع في زحمة البكاء والنواح والولولة. سمعتُ بالموت قبل ذلك وشاهدته وجهاً لوجه ولكنني لم أحس به بهذه القسوة حتى تلك اللحظة. هبطتُ إلى قاع البكاء واختبأت. يتجاذبني الناس ويمتزج بكائي ببكائهم. أسمعهم يبكون فأشهق، ويسمعون شهيقي فيملأون السماء بنواحهم. أشهد أمي حتى هذه اللحظة تلطم وجهها وصدرها، فألطم وجهي. تضمني إلى صدرها وتخفت نحيبها. تهمس جارتنا لغسان أن يأخذني إلى بيتهم، فيقترب هو وجمال ونصري وسليم يأخذونني عنوة. غسلوا وجهي بماء بارد وأحضروا المنقلة وأقنعوني أن أشاركهم اللعب في محاولة للتخفيف عني. استغربتُ أنني استجبتُ.

تأملي أنني لعبت المنقلة أثناء موت أبي.

قلت ذلك لحبيبتي كاشفاً عن سرّ دفين آخر، لم أجرؤ أن أصرح به لأحد من قبل. وعندما يخطر في بالي أكبته وأحاول ان أنشغل بشيء آخر.

واحتجت حبيبتي: لِمَ تخطر لك كل هذه الأمور الآن؟ غريب أمرك. تمتّع بهذا العالم الساحر. هل هناك ما يفوق هذا الفرح؟

ـ أتمتع به صدّقيني. لست حزيناً. يبدو لي أن هناك خيطاً رفيعاً لامرئياً يصل بين أقصى الحزن وأقصى الفرح. يخطر لي أحياناً أن الموت كان متعة للأطفال في ضيعتنا. ربما كان لعبة غير عادية من ألعابنا. قلت لكِ إننا نخترع ألعابنا ولانشتريها جاهزة مثل أبناء المدن الذين لايتغلبون على ضجرهم من لعبة إلا بشراء لعبة أخرى فتتراكم ألعابهم في زوايا النسيان كما تتراكم حياتهم. مترفون حتى الميوعة والتعفن. عندما كان يموت

شخص في الضيعة، كنا نترك كل شيء ونخرج مع الناس إلى المقبرة. نراقب مختلف الوجوه والتعابير ونصغي للتراتيل ونتسلق الأشجار أو نحدق بين الأرجل إلى التابوت يُدلى في حفرة ويُهال عليه التراب والحجارة. وبعد أن يتفرق الناس ننبر الدوّام والقلاليح عن أشجار السنديان الضخمة. كان الدوّام كستناءنا. أما القليح التي تسميها الكتب عفصاً على ما أعتقد فكنا نقلّمها ونلعب بها أو نتراهن عليها.

ـ أعرف أننا عاطفيون جداً في مواجهة الموت، بعكس أهل الغرب. هم يبالغون في البرودة ونحن نبالغ في البكاء. إنما لم يخطر ببالي أبداً أن الموت يمكن أن يكون لعبة.

تذكرتُ حين تحوّل بكاء حبيبتي نفسها إلى شهيق متقطع وكاد يُغمى عليها بين يديّ عندما واجهت جثمانات والدها وأخيها وزوجته وخالتها في بيت الدفان في «ديترويت». صرختُ بها أن تتمالك نفسها يوم ذاك فدفعني خالها الحكيم جانباً وطلب أن يفسحوا المجال كي تتمكن من تنشق الهواء.

تجاه هذه الخواطر شعرتُ بضرورة تغيير الموضوع، فقلتُ لها فيما أقفز لأصل إلى غصن شجرة يتدلى مشبعاً بألوانه الزاهية: لا أصدق أن الخريف يمكن أن يكون بهذا الجمال. لاشك أنه يضاهي الربيع. هذه الألوان سيمفونية ساحرة. هذا التناسق الهائل موسيقا رائعة. لا يمكن أن أنسى تلك الأمسية التي سمعنا فيها السمفونية التاسعة لبتهوفن في «الهل أوديتوريم» في جامعة ميشغن. هذه السمفونية هي قمة الموسيقى، والنشيد قمتها الأسمى في تاريخ الإبداع الإنساني. أذكر كيف أحاط بنا المنشدون فتقاذفتنا الأصوات كما تتقاذف الأمواج زورقاً صغيراً. يانعمة الارتفاع إلى قمة الكون، يا نعمة الهبوط إلى أعماق العالم. نشرف على قمم جبال الهيملايا ونغور إلى قاع جحيم دانتي. أيها التموج، أيتها العواطف، أيتها

الرعود، أيتها البروق، زعزعي أصول العالم وأعيدي بناءه. هذا ما أحسست به تماماً اليوم وأنا أواجه تدفق الشلالات وجهاً لوجه. ترى لذلك هبطتُ الشير وعبرت فوق الشجرة ـ الجسر إلى صخرة وسط تدفق النهر؟

التفتُ إلى حبيبتي واعترفت: تغير وجه عالمي منذ عرفتك.

ـ وأنا أيضاً.

ـ سقطتُ في شلالاتك، ورفعتني غيومكِ إليها.

ـ شاطر في الكلام. تبيعني حكي بحكي.

ـ لا أريد ثمنها.

ـ أدفع ثمنها، إذا أردت.

ـ لاثمن لها.

ونتوقف عند لوحة أخرى تصف تاريخ صخرة تفتتت وطلعت في شقوقها النباتات. أتذكر الصخرة الكبيرة التي نبتت فيها تينة في الكفرون وآسف أنهم أزالوها من الوجود كي يفتحوا طريقاً واسعة مستقيمة. أشتم أهل الحضارة الحديثة الذين يعملون في حقل التنمية. يسمون الهدم تنمية. وأنت يا منيف كيف تجرؤ أن تتهمني بأنني أريد أن تظل الضيعة متخلفة لأنني انتقدت مشاريع تحويل المجاري إلى النهر.

نقرأ اللوحة أمام الصخرة المفتتة في جبال شنندوه. تقول إن تلك الصخرة في طريق الزوال. منذ آلاف السنين تمكّنت قوى الطبيعة أن تُحدث فجوات فيها فتسرّب المطر إلى الداخل. وعندما كانت المياه تتحول إلى جليد في الشتاء، كانت تتسع الفجوات. ثم تسرّب التراب إلى تلك الفجوات فطلعت فيها النباتات. صارت إحدى تلك النباتات شجرة تمكنت من أن تقلع الصّخر. مزيد من المطر، مزيد من التراب مزيد من

النباتات، مزيد من الجذور، مزيد من الفجوات والتشقق والتفتت. هذه الصخرة في طريق الزوال.

أعلّق باقتضاب: الموت تحول.

ـ لاشك في ذلك.

ـ الأشجار والصخور دليل على ذلك.

فيما نلعب المنقلة مرّت أم منيف وأم سليم في طريقهماإلى بيتنا للتعزية. التقت عيناي بعيني أم منيف فحدّقت بي مستغربة، ثم التفتت إلى أم سليم تسألها: أليس هذا هو ابن المرحوم؟ مسكين يلعب. لايعرف معنى الموت.

واعترضت أم سليم: طفل يا حسرتي.

أحنيتُ رأسي خجلاً وحرجاً، واندفعت باتجاه بيتنا. ضعتُ في زحمة النواح مرة ثانية. كانوا قد وضعوا أبي في تابوت خشبي وأجروا الترتيبات الضرورية لحمله إلى المقبرة. قرروا أن يدفنوه ذلك اليوم بالذات، وبعد ساعات قليلة من موته رحمة بأمي وبنا. حمله أصدقاؤه وخرجوا به إلى المقبرة حيث سيستقر نهائياً تحت شجرات السنديان الكبيرة.

لم يجّنبوا أمي مزيداً من الحزن بدفنه بعد موته بساعات. على العكس تعمّق الحزن وبقيت الحسرة في نفسها حتى هذه البرهة وسترافقها حتى نهاية حياتها الطويلة. صرخت يومها وقد تمسكت بها النساء «أخذوكَ مني يا حبيبي. أخذوك مني. أرجعوه. بعد لم يبرد جسده. تدفنوه قبل أن يبرد جسده؟» وبهدوء رتّلت «غِبتَ تَحتَ الأرض كحبة من حنطة» و«مَن يُعطيني ينابيع الدموع لكي أبكي».

وتردد في الضيعة والقرى المجاورة في اليوم التالي أن رجلاً من قرية المهيري المجاورة. مرّ في المقبرة ذلك المساء فسمع أنيناً في القبر فهرب خوفاً. تطوع أحد الجيران وأبلغ أمي الإشاعة فأغمي عليها. منذ ذلك اليوم

وأنا أحاول أن أقنعها بأن الإشاعة لايمكن أن تكون صحيحة مستعملاً القليل مما أعرفه من المبادئ العلمية. عبثاً حاولتُ. لاتزال حتى اليوم تظن أن أبي أغمي عليه بسبب الإبرة التي حقنه بها الحكيم وتصف الذين دفنوه بعد ساعات من موته بالتوحش.

قبل سقوطها بأيام قليلة، كنتُ أتحدث معها في أمور الماضي فقالت بغضب ومرارة، «مالي في هذه الدنيا أسف غير أسفي على أبيك. الله يقطع الحكيم طعمه. لولا الإبرة التي حقنه إياها لم يمت. قام من فراشه وغسل وجهه وتحدث معنا كأن لم يكن به شيء. تحدث مع أبيه وابن عمه يوسف عن رحلته إلى المشتاية ومرمريتا وحب نمرة. لما أعطاه الحكيم الإبرة غاب عن الوعي. يا ماقتل مرضى، الله لايوفقه. والناس يا أمي عندنا وحوش. قبروه قبل ما يرد جسمه؟ كيف سمح أبوه وإخوته وأولاد عمه؟ أخذوه مني بالقوة؟ قطيعة، مات الظهر عملوا التابوت وبحشوا ودفنوه القبر بعد الظهر. لو تركوه إلى اليوم التالي. والرجل مِن المهيري سمعه يئنّ. هرب بدل ما يدبّ الصوت على أهل الضيعة. كيف بتريدني زور الضيعة؟ ما بقدر. مابقدر. الله يقطعهم وحوش».

بقدر ما أحب الضيعة تمقتها أمي. عبثاً حاولتُ أن أغيّر رأيها. عندما تغرز فكرة في رأسها لايمكن أن تطلع منه. ورغم إيمانها العميق لاتنسى أيضاً أن الرجل الحكيم ورجل الدين اقتسما الليرات الثماني الوحيدة التي تركها أبي وتقول، «هؤلاء هم أكلة أموال الأرامل واليتامى».

لا أنكر أن كلام أمي الذي ردّدته على مسمعي طول حياتي أثّر في تكوين موقفي من رجال الدين والأغنياء.

التقيت فتاة جميلة قريبة للحكيم عندما كنت طالباً في الجامعة ونشأت بيننا صداقة متينة وكادت أن تصبح عميقة لو لم تصدر مني هفوة، إذ تطوعت وأخبرتها قصة الإبرة التي قتلت والدي، فخافت واختفت.

وفيما يتعلق برجل الدين قيل لي إنه أيضاً فقد عقله واحتفظ بجسده، في أواخر حياته، فكان يمزق ثيابه ويلاحق الساقية عارياً ويمشي في الليل يستفقد البساتين فتخرج عائلته تبحث عنه. ومما روي لي أنه كان يذهب إلى المقبرة ويجمع الجماجم ويلقي فيها خطبة ويهددها بالجحيم ثم يصفّها في خط طويل ويتسلق شجرة السنديان ليتأكد أنها تشكل خطاً مستقيماً.

حزنتُ عليه كثيراً، فقد كنتُ دائماً أثقّف نفسي بالترفع عن الصغائر، وأكتفي بخوض المعارك الكبرى. أظن أنني خضتُ العالم حقاً وتعرّضتُ لمختلف تياراته. وبقدر ما تعرضتُ بقدر ما تحمستُ للحياة. خضت العالم، قاتلته، غصتُ فيه، اخترقتُ بحاره، ورأيتُ خروجي منه مثل خروج السمكة من الماء: اختناق وموت داخلي أكيد.

مليء بالغضب المكبوت، وأكثر مايُغضبني هذا الافتراس وهذا القهر. عندما أفكر أن تاريخ الإنسان هو سجل هائل للافتراس، أشعر بالذنب أنني لم أنذر نفسي للقتال. ما أكثر القتل! ما أكثر الأقنعة! ما أكثر الخوف! ما أحوجنا للقتال في صف مخول! لماذا أنا في واشنطن وجبال شنندوه! لماذا لم أكن فيك يا بيروت وقت حصارك؟ لماذا لم أقاوم الدبابات الإسرائيلية وهي تسحق الأزهار البرية في الجنوب؟ المقاومة ملح الأرض.

أنتِ أيتها الحضارة المقنّعة. أرفضكِ. هزيلة هزيلة. أعلنك هزيلة وحقيرة. تُسمّين الأبطال المحررين إرهابيين. أعلنكِ إرهابية! تصنّفين العالم إلى متحضرين وبرابرة. أعلنكِ بربرية مع أنّني أمج هذه اللغة فربّما تفهمين لغتك. أعلنك هزيلة وحقيرة. أناقتك قناع. أزياؤك الجميلة أقنعة. أنتِ لاتعرفين ولكنني أنا أعرف أن هناك علاقة بين انشغال شعبك بتخفيف وزنه بسبب التخمة وجوع أفريقيا. ديمقراطيتك افتراس مهذب أنيق، مصابة بالعفن. اليوم، اليوم بالذات، قرأتُ أن أحد أغنيائك الكبار قرأ إعلاناً يؤكد أن سيارة «الرولز رويس» هي «لأولئك الأفراد غير العاديين

الذين يملكون دافعاً داخلياً لتحقيق أسمى طموحات الحياة»، فقرّر تواً أن يشتري واحدة لزوجته في عيد ميلادها، ودفع ثمنها ١٥٦ ألف دولار مما يفوق ميزانية عدة عائلات فقيرة في العالم الثالث مدى الحياة. أعرف ما ستقولين. إنه ماله يتصرف به كما يشاء. أقول لكِ إنه يجب أن يكون سارقاً. يا سارقي مجوهرات أفريقيا الجائعة أين الهرب؟ وأنتن يا لابسات فروات جراء البحر النادرة التي يقتلها عملاؤكم في طفولتها الأولى بعصيهم الضخمة، أين الهرب؟ وأنتم يا مدخّني السيجارات بمشارب من سيقان طائر الحوم، إلى متى يستمر التجبر؟ أين تنتهي حدود الاستغلال والظلم؟ إلى متى القهر؟ والترف على حساب حرمان الآخرين أين ومتى ينتهي؟ حوّلتم الآخر إلى آلة أيضاً. تستأجرون الآن نساء لتجلب لكم أطفالاً. تتعاقدون معهن وهن في حالة يأس. تستودعون بيوضكم في أحشائهن. وما أن تلد المرأة حتى تنزعوا طفلها من حضنها. وعندما تتعلق إحداهن بطفلها وحشيشة قلبها، كما تقول أمي، وترفض أن تسّلمه تأخذونها إلى محاكمكم الجبارة مستعملين أموالكم ونفوذكم ضد الأمومة. تسلبون الإنسان الأمومة. أين حدود الترف والجشع؟ لماذا أكتفي بسلاح الكلمة؟

وأتساءل لماذا أنا مليء بالغضب. لماذا أفكر بهذه القضايا وأنشغل بهذه الهموم وسط الأجواء الساحرة؟ هل أستطيع أن أتحرر من قناعاتي وهمومي ولو للحظة واحدة؟ أريد لحظة واحدة دون هموم.

كيف أجرؤ أن أغضب وسط كل هذا الفرح الشاسع، وسط هذا الجمال الساحر، وسط هذه الطمأنينة الكلية! لماذا أنا مسكون بالقضايا مأخوذ بها، منذور لها حتى في وسط هذه الروعة؟ لماذا أستدعي المسحوقين من سكينتهم بقدر ما أتمتع بالفرح والجمال والطمأنينة؟ ليست الحياة فرحاً وجمالاً وطمأنينة ما لم أشاركها الآخرين. عبثاً أحاول أن أتحرر

من الاهتمامات. امتلئي يا نفسي بالقضايا. مثلكَ يا طائر الحوم رحيلي الدائم وولادتي بعد كل موت.

أتساءل لماذا يستحضر موتُ شجرة في جبال شنندوه وفاة أبي في الكفرون واغتيال الأزهار البرية وسقوط طائر الحوم وانتحار البلاد وموت أمي البطيء؟ لماذا هذا الهروب إلى الطفولة؟ لماذا التحليل؟ ما الخط الفاصل بين الموت والمواجهة؟

منذ تركتُ الكفرون صغيراً، خضتُ العالم. دخلت معاركه على جميع الجبهات. خارج المعركة أكون مثل سمكة خارج الماء. في المعركة أكون مثل أسماك السلمون التي حدّثني عنها هاني. تسبح في الأنهر الكبرى ضد التيارات صعوداً تجاه المنابع الأولى التي وُلدت فيها. وما أن تصل بعد كفاح مرير حتى تضع بيوضها وتموت.

ومثلك يا طائر الحوم عبرتُ القارات، حلّقتُ فوق القمم، رافقتُ البحار والأنهر، تعرّضتُ للقتل، وُلدتُ بعد كل موت، اخترقتُ كثافة الغيوم وشفافيتها، لامستُ عري السماء، تظللتُ بالأمطار، قاومتُ العواصف، اكتشفتُ الآفاق، فارقتُ سربي والتحمتُ به، رحلتُ في الاتجاهات الأربع وشرّشتُ في الأرض، خبرتُ أقاصي الحزن والفرح.

□□□

الخُروجُ مِنَ الصدَفة

وقدّمت لي حبيبتي ورقة هبطت تلك اللحظة من شجرة باسقة. تأملتُ ألوانها المتوهجة وعروقها الشفافة ممتدة في مختلف مساحاتها بدءاً من بداياتها. أعدتُ الورقة لحبيبتي وسألت: تذكرين قصة ذلك الولد المشوه الذي أُصيب بمرض الفيل فتكوّنت له ذراع طويلة قوية ضخمة؟

ـ الذي كان يضرب بقية الأولاد بما فيهم إخوته وأخواته وكان له بينهم ضحايا؟

ـ تماماً، والذي كان أهله مضطرين دائماً أن يدافعوا عنه ويطالبوا بقية الأولاد أن يتجنبوه ويتفهموه بحجة أنه مريض وحساس ومعقّد.

ـ أعرف تماماً. لماذا تذكّرني بهذه القصة؟

اقتنعتُ بأنها تعرف ولكنني أردتُ أن أمتحنها: لماذا؟ مارأيكِ؟

ـ لأنك ترى أن إسرائيل هذا الولد. وأميركا الأهل المضطرون أن يدافعوا عنه باستمرار.

ـ صحيح.

ـ قدّمتُ لكَ ورقةً ملونة سقطتُ تواً من الشجرة لتتأمل جمالها، فتحدّثني عن الولد المشوه وأميركا. غريب أمرك. تحرر من كوابيسك.

ـ أنتِ على حق هذه المرة أيضاً.

ـ لا أريد أن أسمع شيئاً عن الموضوع لمدة.

ـ أعدكِ.

وعدتُ أتأمل ألوان الورقة المتوهجة، غير أنني سمعت أصواتاً مقبلة من قلعة الشقيف في جنوب لبنان: من أبي علي إلى ٤٠٢: وجّهوا الهواء صوبنا وكونوا صامدين. أرسلوا الطيور وقولوا اعتصموا.

نطل على واد آخر وتلة اتشحت بطبقة شفافة من الضباب. تنخطف نفسي في مختلف الاتجاهات في آن معاً. قبل سقوطها بأيام قليلة أطلقت أمي صوتها الحبيس متقطعاً بغناء هادئ حزين:

حظ الناس سوّى نخل وثمار   وحظي زيزفون الما جني

تصمت. يرتفع صوتها متمهلاً مثل الضباب في الوادي بغناء لا أستطيع أن أميّز فيه بين الحزن والفرح، وأتمنى لو كان يشمل غضباً:

راحوا شمالَ وردّت خيلهُم قِبلي   عذبوني يا أمي عذاب الخيط بالإبري
لا وحق تربة نبي والساكنين جَبلي   ومِن بعدهُم، يا عيني العيش ماطبلي

تصمت مرة أخرى. تبحث في ذاكرتها المضطربة عن بيت آخر. لاتجده تواً. تقول كأنها تتحدث إلى نفسها أكثر مما تتحدث معي «يا دلي، صرت أنسى كل شيء. وصوتي مايبطلع».

ويرتفع صوتها وقد امتزج فيه الحزن والفرح دون انتهاء:

طلعت لراس الجبل   وناديت خلاني
واصفر لوني وقلت   الموت أنا جاني
يا كاتب المكاتيب   اكتبلي معانيها
لأقعد عالدرب   ومالي مين يودّيها

وتنسى حزنها عندما أناولها كأس عرق وغمسة شنكليش، فتقول «الله يخليكم. كاسكم. شفة واحدة لأقول كاسكم. أنا مابشرب». تستقر في كرسيها وتنتقل إلى نوع آخر من الأغاني تماماً كما كان يفعل نسيم النبع:

على دلعونا يا حبيب قلبي   مابدك ياني ارحل من دربي

لابد الهوىماينتسم غربي   وبشوف حوالك لمين بتكونا

تتناول الكأس وتأخذ شفة أخرى. فأناولها فرمة من البندورة. تسألني إذا كنت رششتها بالملح الذي تحبه وتتابع:

جِتني تتخطر وتقلي دَخيلك   بنيّ صغيري ولاني مِن جيلَكَ
حلّفتك بالله وسر أناجيلك   وسبع المذاهب والتعبدونا

صفّقنا لها واعتبرنا أنه شيء نادر أن تخرج من صدفتها الحزينة. فطالبناها بمزيد. ورأت أن تختتم غناءها بالعتابا. تصمت، تتنحنح، تصمت مرة أخرى، ثم تطلع الكلمات من صدرها طيوراً صغيرة تحلّق فوق الأودية:

عنّيت وعنّيت عنّيت   شبيه البَكَر عالدولاب عنّيت
لولا الصبر والتشبيه جنّيت   ورافقنا وحوش الفلا

تصمت دون أن تنزع كفها عن خدها. ننصرف عنها للحديث في أمور جدّية. تظل غارقة في عالمها الخاص، وتغني بصوت منخفض كأنما تعتذر عن استرسالها:

أوف.. أوف يا وجاعي   يا فرحة الديب لما يبطل الراعي
أوف.. كلمة أوف مابتشفي   يا نار القلب كل العمر ما بتطفي

أستعيد كل ذلك وقد بدأنا ننحدر مخلّفين وراءنا جبال شننروه الساحرة التي ستعرى بعد أيام وتنتظر موسم الثلج والعواصف. ماذا سيحل بالغزلان؟

ونقف عند سبيل ماء وسط الجبل. نشرب ونعبئ وعاء حملناه معنا في سبيل هذه الغاية، كما لو كنا نسترجع لقاءنا الأول في عيتا الفخار. تتقدم فتاة سوداء كي تشرب فأقترح عليها أن تشرب براحتيها كما نفعل في الكفرون. ولما تحاول، أبتسم لها. تبتسم لي. كانت أيضاً جميلة حزينة كالصباح في خريف شننروه. أردّد في نفسي:

اهبط أيها الموت، اهبط

اهبط إلى سافانا، في جورجيا
في أسفل ياماكروو
وابحث عن الأخت كارولينا

أعود إلى حبيبتي في السيارة. تبتسم وتسألني: يا ملعون، ماذا كنت تقول للسوداء؟

قلتُ لها إنني عاشق مفتون.

ـ يا ملعون.

ونعود نقتحم الطريق عائدين إلى واشنطن. نستمع إلى شريط سجّلنا عليه تقاسيم عود لمنير بشير. نسمع ونتأوه بفرح. نتأوه بحزن. نتأوه بالفرح والحزن معاً. نصغي لشريط آخر يلقي فيه أدونيس قصيدة كما تمطر السماء فوق قصابين أو كما يلتهم الحريق الغابات في أيام كاليفورنيا الحارة:

نارُنا تتقدم نحو المدينة
لتهدَّ سريرَ المدينة
... نارُنا تتقدم والعشبُ يُولد في الجمرة الثائرة
نارنا تتقدم نحو المدينة

نصل المدينة ونستانف حياتنا السابقة. نسير في شوارعها مسرعين. أمواج الناس تتقاذفنا، تهبط بنا ونصعد بها، يدخل ملحها إلى أعماقنا.

نخوض العالم كما لو كان معركة حقيقية. نسبح ضد التيارات ونحوّم فوق الأنهر. نعبر الوجوهَ المنبسطة المغضّنة، السوداء البيضاء، الذكية البلهاء، المنكسرة الشامخة، المليئة الفارغة، الفرحة الحزينة. نتحرر من الكآبة ونغنّي نشيد الفرح.

هل كان لابد من العودة؟

□□□

«.. إن لحليم بركات صوته الخاص. وهو صوت قوي تتبينه بين عشرات الأصوات».

جبرا إبراهيم جبرا

«أحب أن أقرأ لحليم بركات في نتاجه القصصي طينة آدم فني جديد، فهو في معاناته يعمّق ويتفرّد ويتجاوز حدود الرؤية العادية».

أدونيس

«تستعمل الحساسية في رواية حليم بركات لتُبرز الوعي الإنساني بحدّة المأساة».

إدورد سعيد

«يأتي صوت حليم بركات نهراً يتلاقى بأنهار غاضبة أخرى في العالم».

خالدة سعيد

طائر الحوم

«طائر الحوم» رواية متفرّدة، بالغة الرقة والحساسية، إضافة إلى جرأتها في التصدي لعددٍ من القضايا الشائكة، التي تكاد تكون محرّمة. هذا عدا عن معمارها الفني الجديد والمتميز.

وبقدر ما توغل هذه الرواية في الماضي، بحيث تبدو أقرب إلى سيرة الطفولة، فإنها شديدة الحضور في الراهن، في الهموم المعاصرة؛ كما لاتغفل عن التنبيه لأخطار المستقبل. لذلك ليس من السهل تصنيفها ضمن العناوين السائدة، أو حصرها في إطار ضيق. إنها تذكّر وبوح وتأمل، وتصل في أحيان كثيرة إلى مستوى الشعر الخالص، دون أن تنسى خطها الدرامي الذي يجعلها إحدى أبرز الروايات التي صدرت في السنوات الأخيرة.

وحليم بركات روائي متميز، راسخ القدم، قوي الحض
إلى تقديم أو تعريف.

عبد الرحمن م

السعر ١٣٥ ل.س